الرجل العاشر

تأليف غريم غرين

ترجمة هادي الطائي



الرجل العاشر

دار المأمون

الرجل العاشر

تأليف
غرَيَم غرين

ترجمة
هادي الطائي

دار المأمون للترجمة والنشر
بغداد ١٩٨٧

The Tenth Man	الرجل العاشر
Graham Greene	غراهام غرين

دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والإعلام

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٦٧١) لسنة ١٩٨٧
توجه المراسلات الى :
دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والإعلام
بغداد ـ الجمهورية العراقية
ص . ب : ٢٤٠١٥
تلكس : ٢١٢٩٨٤
طبع بمطابع دار الحرية للطباعة ـ بغداد

عن المؤلف

ولد غرَيَم غـرين ، أو سيد الادب الانكليـزي العجوز كمـا يسمى احياناً ، بمدينة بيركهامستد في انكلترا عام ١٩٠٤ ودرس في جامعـة اوكسفورد . عمل محرراً وناقداً سينمائياً في جريدة التايمز اللندنية من ١٩٢٦ حتى ١٩٤٠ ومحرراً ادبياً في مجلة سپكتيتر من ١٩٤٠ حتى ١٩٤١ .

منح العديد من الجوائز الادبية وشهادات الدكتوراه الفخريـة في الادب . كتب العديد من الـروايات والقصص القصـيرة والمسرحيات والمقالات ونال شهرة عالمية واسعة . ارتحل كثيراً واعتمد مشاهداته والاماكن التي زارها والناس الذين قابلهم مادة للعـديد من روايـاته وقصصه . له اسلـوب شيق ومتميز في الكتـابة ممـا حدا بـالشاعـر الامريكي أودن أن ينحت كلمة «غرَيَمغريني» للدلالة عـلى اسلوبـه المتميز .

من أشهر اعمالـه (القوة والمجـد) و (صخرة بـرايتن) و (العميل السري) و(الامريكي الهادىء) و(جوهر القضية)

المقدمة

(١)

في عام ١٩٤٨ كنت منهمكاً في كتابة رواية «الرجل الثالث» ويبدو انني كنت قد نسيت تماماً في ذلك الوقت رواية أخرى لي بعنوان «الرجل العاشر» كانت محفوظة في مكان ما في ادراج أرشيف شركة مترو غولدوين ماير في أميركا وكأنها قنبلة زمنية ستنفجر في موعدها المحدد .

وفي عام ١٩٨٣ وصلتني رسالة من الولايات المتحدة من شخص لا اعرفه يخبرني فيها بأن شركة متروغولدوين ماير قد عرضت على احد الناشرين رواية من تأليفي بعنوان «الرجل العاشر» . لم آخذ كلامه مأخذ الجد وظننت ـ وقد أخطأت في ظني كما تبين فيما بعد ـ ان المقصود هو مسودة الرواية التي كتبتها قبيل انتهاء الحرب بموجب عقد بيني وبين صديقي بين غوتز ممثل شركة مترو غولدوين ماير في لندن . لم تكن تلك المسودة تتجاوز صفحتين بالالة الكاتبة ولذلك بدا لي آنذاك أنه ليس هناك من ضير في نشرها خاصة ان تلك الرواية لم تصور قط شريطاً سينمائيا .

وقد اضطررت الى توقيع ذلك العقد خوفاً من تعرض عائلتي لصعوبات مالية بعد انتهاء الحرب وتركي الخدمة في دوائر الدولة . فقبل نشوب الحرب لم اتمكن من سد احتياجاتهم عن طريق كتابة الروايات

وحدها ، بل بقيت مديناً للناشرين حتى عام ١٩٣٨ عندما بيعت ثمانية الاف نسخة من روايتي المسماة «صخرة برايتن» وتمكنت من تسديد ديوني ولو الى حين . ولم تكن رواية «العظمة والمجد» التي ظهرت بثلاثة الاف وخمسمائة نسخة وتزامنت وغزو الغرب أفضل حظاً من سابقاتها ولم يطرأ أي تحسن على ظروفي المالية . لذلك فقدت الثقة بمستقبلي بوصفي كاتباً روائياً . وفي عام ١٩٤٤ لم أجد بُدّاً من الترحيب والقبول بالعرض الذي تقدمت به شركة متروغولدوين ماير لتوقيع عقد معها مقابل مبلغ من المال بدا كافياً لسد نفقات معيشتنا سنتين او ثلاث . وكان العقد الذي هو أشبه بعقد عبودية ينص على بيعي الشركة فكرة رواية «الرجل العاشر» .

ثم جاء الخبر المثير والمزعج في الوقت نفسه والذي يفيد أن احد الناشرين وهو السيد أنطوني بلوند قد اشترى حقوق نشر الرواية الغامضة كافة مقابل مبلغ ضخم . وطبيعي أن متروغولدوين ماير هي التي ستقبض العائدات الخاصة بنشر الكتاب وهي التي تدفع الى المؤلف . وقد تكرم السيد بلوند وارسل إلي مسودة الرواية وطلب مني مراجعتها وادخال اية تنقيحات قد اراها ضرورية على الرواية قبل نشرها . عند ذاك فقط ادركت أن «الرجل العاشر» لم تكن مسودة من صفحتين كما كنت أظن وانما رواية قصيرة كاملة في حدود ثلاثين الف كلمة . والذي اثارني حقاً وأدهشني هو انني وجدت هذه الرواية المنسية مشوقة وافضل بكثير من رواية «الرجل الثالث» . وبهذا لم أجد مسوغاً شخصياً للحيلولة دون نشرها على افتراض ان لدي الحجة القانونية وهو امر مشكوك فيه كثيراً . وعلى الرغم من ذلك وافق السيد

بلوند مشكوراً على نشر الرواية بالاشتراك مع دار النشر التي اعتدت العمل معها وهي بودلي هيد .

وبعد ان سوي الموضوع تسوية ودية كانت هناك مفاجأة اخرى في إنتظاري . فقد وجدت مصادفة في احدى الخزانات في بيتي بپاريس علبة من ورق المقوى وبداخلها مخطوطتان ، احداهما دفتر مذكرات وملاحظات يبدو انني كنت احتفظ به خلال عامي ١٩٣٧ و١٩٣٨ . ووجدت العبارة التالية تحت تاريخ ٢٦كانون الاول ١٩٣٧ : «ناقشت ومنزيس (مخرج افلام أميركي) موضوع الفلم . فكرتان لأفلام تنتج في المستقبل . احداهما ، وضع سياسي مشابه للوضع في اسپانيا . أمر باجراء قرعة ثم قتل رجل من بين كل عشرة رجال في السجن . تجرى القرعة باستخدام عيدان الشخاط . رجل ثري يسحب أطول العيدان . يعرض كل ثروته على أي شخص يوافق على أن يحل محله . يتقدم أحد السجناء ويوافق على العرض من اجل عائلته . عندما يفرج في وقت لاحق عن الثري السابق يقوم متنكراً بزيارة العائلة التي اصبحت مالكة أمواله كلها بينما هو لم يعد يملك شيئاً سوى حياته» ....

تعد هذه الملاحظات الهيكل الأساس للرواية . ويبدو ان النقاط الاربع التي وضعت في نهاية تلك الملاحظات تمثل سنوات الحرب التي تلت تلك السنة وضاعت خلالها أية ذكرى عن تلك الفكرة الباهتة المخفية في اللاشعور . وعندما خطرت على بالي مرة اخرى فكرة رواية شاڤيل وجانڤييه في عام ١٩٤٤ ظننت ، على ما يبدو، انها كانت فكرة جديدة ، الا انني أستطيع ان اجزم الآن ان تلك الشخصيتين كانتا تنموان في أعماق اللاشعور المظلمة في وقت كان العالم كله يحترق بنيران الحرب .

وعلى اثر الظهور المفاجىء لرواية «الرجل العاشر» من أرشيف شركة مترو غولدؤين ماير بحثت في أرشيفي الخاص فوجدت مسودات لفكرتين جديدتين لروايتين سينمائيتين . وقد يجد القارىء متعة في قراءة مشروعي الروايتين هاتين . الفكرة الاولى كانت تسمى «جيم برادون ومجرم الحرب» ، ويبدو لي الان انها كانت فكرة لطيفة على الرغم من انه لم ينتج عنها أي شيء . وأعرض هنا فكرة الرواية كما ظهرت في المسودات ويبدو انها لاتزال قصة مناسبة حتى يومنا هذا خصوصا ان باربي ينتظر المحاكمة* .

(٢)

هناك أسطورة قديمة تقول إن لكل رجل في هذا العالم نظيراً يشبهه تماما . واليكم قصة جيم برادون الغريبة .

كان جيم برادون يعمل مسؤول مبيعات لدى احدى الشركات المتخصصة في انتاج أطعمة الافطار من الحبوب في فيلادلفيا . كان اميناً هادئا لم يؤذ احدا قط وكان متزوجاً وله طفلان بالغ في تدليلهما . لم يتأثر بالحرب التي نشبت عام ١٩٤١ لان عمره كان قد تجاوز الاربعين . كما أيد مديروه أنهم كانوا بحاجة الى خدماته .

كانت جدته المانية الاصل فاخذ يتعلم اللغة الالمانية ظناً منه أنها قد تنفعه ذات يوم وكان هذا هو الشيء الجديد الوحيد الذي حدث له خلال

---

* المقصود هو كلاوس باربي مجرم الحرب النازي الذي القي القبض عليه في الارجنتين عام ١٩٨٣ ونقل الى فرنسا حيث ارتكب جرائم عديدة وذلك لمحاكمته . (المترجم)

الفترة من ١٩٤١ الى ١٩٤٥ . وكان يرى بين الحين والاخر صورة شرايبر المفتش العام النازي لمعسكرات الاعتقال منشورة في الصحف ، وباستثناء الملاحظة التي ابداها احد ابنائه عن وجود شبه كبير بينه وبين الضابط النازي لم ينتبه شخص آخر الى هذه الحقيقة .

في خريف عام ١٩٤٥ اعترف قائد احدى الغواصات الالمانية المعروفة باسم «يو ـ بوت» بعد اعتقاله بانه ساعد على ايصال شرايبر الى ساحل المكسيك . يبدأ الفلم على الشاطىء المكسيكي حيث يبدو زورق مطاطي وقد انقلب بفعل الامواج وتبدو كذلك جثة شرايبر ظاهرة للعيان من خلال طبقات الماء الرقيقة . ينحسر مستوى المد وتبدأ السرطانات البرية بالخروج من جحورها وتقضي على أي اثر يدل على شرايبر او موته ، ولذلك تستمر عملية البحث عنه .

ومن ناحية اخرى تنتعش التجارة بعد انتهاء الحرب ويوفد جيم برادون في جولة الى الاميركتين الوسطى والجنوبية . وفي الطائرة يتصفح أحد اعداد مجلة لايف الذي يحمل قصة ملاحقة شرايبر والبحث عنه . ويلاحظ زميله في السفر ، وهو رجل صغير الحجم جاد المنظر ذو عوينات ويطفح بالنظريات شبه العلمية ، الشبه بين جيم وشرايبر ويعلق موجهاً كلامه الى جيم :

ـ ليس في وسعك ملاحظة ذلك وأشك ان كان بامكان أي شخص أخر من بين عشرة الاف شخص أن يلاحظ الشبه لاننا عندما نقول بوجود تشابه بين الاشخاص لانقصد شكل الوجه او الجمجمة وانما السحنة التي تلقيها التجربة والشخصية على ملامح الشخص . انك تشبه شرايبر في الشكل ولكن ليس في وسع احد ان يلاحظ ذلك لان اسلوب حياتك مختلف

تماماً عن اسلوب حياته . صحيح ان هـذا الاختلاف في نمط الحيـاة لايمكن أن يغيرشكل الاذنين ، الا ان الشيء المهم الذي يبحث عنه الناس هو تعابير العينين .

وكان هذا الشخص الغريب هو الانسان الوحيد الذي لاحظ وجود بعض الشبه بينه وبين شرايبر اذا استثنينا فعلاً إبن جيم برادون الذي كان يمازح أباه أحياناً في هذه الحقيقة . ومن حسن حظ برادون وحسن حظ زميله في السفر ان يغادر هذا الغريب الطائرة عندما تتوقف في احدى المدن الصغيرة وهي في طريقها الى المكسيك . وفي منتصف الرحلة الى مدينة مكسيكو تتحطم الطائرة ويموت كل من فيها عدا جيم برادون .

يخرج برادون من حادث تحطم الطائرة حياً ولكنه يصاب بكسر في ذراعه اليسرى وجرح في وجهة ويفقد ذاكرته كلياً من جراء الحادث . ولشـدة حذره كـان قد أفـرغ قبل الحـادث ما في جيـوبه من أوراق ومستندات ووضعها في حقيبة يدوية . يقع الحادث في الليل وتضيع منه الحقيبة بطبيعة الحال . وعندما يسترد وعيه لايملك ما يثبت هويته عدا ملامحه التي يتقاسمها ورجل ميت . يبحث في جيوبه عن أي شيء يمكن أن يهديه الى معرفة هويته فلم يجد غير قطع من النقود المعدنية وكتاب في كل جيب من جيوبه . أحد هذه الكتب مغلف بالـورق ويضم قصائـد للشاعر الالماني هاينه ، أما الاخر فهو كتاب جيب اميركي . يكتشف انه يستطيع القراءة باللغتين . وبعد تفتيش دقيق في جيوبه يجد رزمة من الاوراق النقدية من فئة عشرة دولارات وقد ثبتت في البطانة الداخلية لسترته .

ليس من الضروري الدخول في تفاصيل مغامراته القادمـة في هذه

الخلاصة القصيرة ولكنه يتمكن بشكل من الاشكال من الوصول الى محطة قطار قـريبة ، ومن هنـاك يستقل القطـار متوجهـاً الى مدينـة مكسيكو . هدفه البحث عن احد المستشفيـات باسرع مـايمكن ولكن عندما يدخل الى المرافق العامة في المحطة يرىٰ قرب المرآة صورة شرايبر مع وصف دونته الشرطة باللغتين الاسپانية والانكليزية . ربما أثرت فيه تجارب الايام الماضية وإخشوشنت ملامحه بعض الشيء لانه يكتشف وجود الشبه بينه وبين الصورة ويعتقد انه وجد اسمه فتتغير ملامحه مرة اخرى وتأخذ هذه المرة شكل رجل مطارد .

لايعرف أين يذهب أو ماذا يفعل . يخشى كل رجال الشرطة . منظره يثير الانتباه لما ينطوي عليـه من مكر واحتيـال . وسرعان مـا تخرج الصحف بنبأ ان شرايبر قد شوهد في مدينة مكسيكو . يطيـل لحيته وبذلك يفقد آخر وجه شبه بينه وبين جيم برادون القديم .

ينقذه مؤقتاً اصدقاء شرايبر وهم جماعة من الفاشيين الذين كانوا يعرفون شرايبر وينتظرونه . من بين هؤلاء رجل مكسيكي صغير الحجم جاحظ العينين سادي سنسميه پيتر لوجود شبه بينه وبين پيتر لور ، وهناك ايضاً شقيقته الجميلة الماكرة التي سنسميها لورين لاغراض التمثيل . تتولى لورين مهمة اعادة الذاكرة الى جيم حيث تعتقد ان من الضروري ان تعود ذاكرة شرايبر اليه . تنشأ علاقة حب بينهما . تحبه هي دون أي تحفظ اعتقاداً منها أنها تعرف كل شيء عنه أما هو فيشعر بنوع من التحفظ لايعرف سره في حبه إياها .

پيتر رجل مهمل غاية الاهمال وبدافع من حبه العنف والايذاء يترك الحذر والحيطة ، ونتيجة لحادث لماتزل تفاصيله لم تتضح تلقي الشرطة

المكسيكية القبض على جيم ويتمكن الاخرون من الفرار .

لوكان الشخص الذي ألقي القبض عليه هو شرايبر حقاً لم يكن في وسعه أن يشكو من سوء المعاملة . وهذا ينطبق على جيم برادون فهو وان كان لايذكر شيئاً عن جرائمه ، الا انه لم ينكر حقيقة انه هو الذي ارتكبها . تجبره الشرطة على مشاهدة شريط سينمائي عن معسكر اعتقال بوخن والت ويتابع جيم بهلع وندم صور ضحايا شرايبر العراة والنحاف . لم تعد لديه رغبة في الفرار وهو سعيد أن يواجه الموت . يرُسل الى الشمال ويُسلم الى السلطات الاميركية التي تتخذ الاجراءات التمهيدية لمحاكمته . ويصبح الوجه الجديد لشرايبر الملتحي احد المواضيع المتكررة في الصحافة . ترى عائلته صورته مع من يرونها ولكن لم يخطر ببال احد من افرادها ولو لحظة واحدة انها صورة جيم .

ومن بين الذين يتابعون محاكمته العالم النفساني الزائف الصغير الحجم ذو العوينات الذي كان مع جيم في الطائرة نفسها . وعلى الرغم من انه لايتعرف الى جيم ، الا انه لايقتنع ان يكون المتهم هو شرايبر حقاً إذ ان شخصية المتهم تختلف عن شخصية شرايبر . يتذكر هذا الشخص ماقاله لزميله في السفر من ان التشابه لا يأتي من قياسات الجمجمة وانما من خلال التعابير . فالانسان لايتوقع ان يرى أية ملامح تدل على الخوف والندم في عيون شرايبر . المتهم يدعي انه فقد ذاكراته الا انه لاينكر شيئاً . ماذا لو افترضنا انهم يحاكمون شخصاً آخر خطأً وذلك لوجود تشابه بسيط في تركيب العظام ...

وفي هذا الوقت يتجه بيترولوّرين اللذان تمكنا من الافلات من كمين الشرطة شمالاً وهما يدبران خطة لانقاذ جيم . ما هي هذه الخطة ؟

لا أعرف تفاصيلها حتى هذه اللحظة ، ولكنها خطة يائسة وعنيفة وفرص نجاحها لاتزيد على الواحد في المائة . ومع ذلك تنجح الخطة ويخلصان جيم ويهربان . وتبدأ عملية المطاردة من جديد مع فارق واحد هذه المرة وهو ان المطاردة تجري في اميركا وليس في المكسيك وتقوم الشرطة بمحاصرة الهاربين في بيت كبير باحدى الضواحي .

يتمكن بيتر من احتجاز رهينتين هما امرأة وطفلها كانا في البيت عندما اقتحمه الفارون . طوال هذه الفترة كان جيم يطيع اوامر اصحابه وكأنه انسان آلي حتى انه لم يجد فرصة لنزع الاغلال من يديه ولكن ازاء تصرف بيتر هذا والذي هو تجسيد حي لحقيقة العقلية الفاشية يستيقظ ضميره ويقف في وجه أصدقائه والمرأة التي أحبها . يوجه ضربة الى بيتر بسلسلة اغلاله ويتمكن من انتزاع مسدسه . المرأة ايضاً تحمل مسدساً ويواجه احدهما الاخر كأنهما خصمان متبارزان وتقول له :

ـ لا اظن انك ستطلق النار علي ياعزيزي .

ولكنه يطلق النار فتصيبها وتطلق هي ايضاً بعد ثانية واحدة الا ان الرصاصة لم تصبه وانما أصابت اخاها الذي استرد وعيه واخذ يستعد لمهاجمته . تخاطبه وهي تلفظ انفاسها الاخيرة وتقول :

ـ انك لست شرايبر ، مستحيل ان تكون انت شرايبر ، انك انسان شريف ، من أنت بحق السماء ؟

يسلم جيم برادون نفسه الى السلطات وتظهر حقيقة نظرية العالم النفساني جلية واضحة ، فالشبه بين برادون وشرايبر شبه مادي فقط . وهنا يتذكر الرجل الصغير الحجم زميله في السفر الذي تحدث اليه على متن الطائرة ويتقدم للادلاء بشهادته مبرزاً حقيقة عائلة برادون .

ما تزال التفاصيل الخاصة بالنهاية السعيدة غير كاملة في ذهني الا ان قصة جيم برادون الغريبة تنتهي مـع اطلاق الـرصاص في البيت الريفي ، فعند هـذه النقطة من الفلم يمـد المشاهـدون أيديهم تحت مقاعدهم لاخذ معاطفهم ومن الواضح ان في وسع كل واحد من الحضور في القاعة أن يتصور تطور الاحداث بعد تلك النقطة .

(٣)

واما المسودة الثانية التي كتبتها لتكون موضوعاً لشريط سينمائي فتحمل عنوان «لا لوم على أحد» وقد فرغت من كتابتها في الوقت نفسه تقريباً واعطيتها صديقي **كاڤالكانتي** . وقد اعجبته الفكـرة الا ان المشروع لم ير النور ابداً لانه عندما عرضها على هيئة رقابة الافـلام اخبروه بانهم لايجيزون انتاج فلم يسخر من الشرطة السرية . ولهذا السبب فقد تبعت هذه الـرواية الـروايات الاخـرى وبقيت في أعماق اللاشعور فترة من الزمن لتظهر مرة أخرىٰ بعد عشر سنوات في شكل رواية تحمل عنوان «عميلنا في هاڤانا» بعد أن قمت بتبسيطهـا بعض الشيء دون ادخال أية تحسنات عليها على ما أظن .

لاتوجد هناك رقابة على كتابة الروايات ، الا انني علمت فيما بعد أن شعبة MI5 في المخابرات البريطانية قد اقترحت حينذاك علىٰ شعبة MI6 اتخاذ اجراء معين ضد الكتاب لانه يفشي اسراراً رسمية . لا اعرف ما هو السر الذي كشفته في الرواية ؟ هل هو سر امكانية استخدام ذرْق الطيور حبراً سرياً ؟ على أية حال ولحسن الحظ يبدو ان السيد (س١)

رئيس شعبة M 16 كان يتمتع بروح النكتة اكثر من زميله في شعبة M15 ولذلك لم يشجعه على اتخاذ اي اجراء ضد الكتاب .

لا لوم على أحد

(١)

ريجارد ترپ هو وكيل شركة سنغر لمكائن الخياطة في احدى عواصم دول البلطيق . هذه العاصمة شبيهة جداً بمدينة تالين . يتميز تـرپ بكونه رجلاً صغير الحجم مسالماً ذا طبع أقرب الى التهيب . يكن حباً جماً للطوابع البريدية واوپرا غلبرت وسوليڤان ولزوجته كما انه يولي شركة سنغر لمكائن الخياطة ولاءً عاطفياً . يعمل بصورة غير رسمية لدى الشرطة السرية البريطانية بوصفه العميل (ب ٧٢٠) . الزمان : سنة ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩.

تصغره زوجته السيدة غلوريا ترپ بعدة سنوات وقد وجد السيد ترپ نفسه مضطراً الى الانضمام الى المخابرات البريطانية حتى يوفر لزوجته حياة أفضل إذ كان يشعر بان عليه ان ينفق عليها اموالاً اكثر مما تعطيه اياه شركة سنغر حتى يتمكن من الحفاظ على زوجته على الرغم من

انها كانت تكن اعجاباً حقيقياً لزوجها الباهت . وفعلاً لاتعرف هي شيئاً عن أنشطته السرية .

يعد ترپ في نظر المقر الرئيس في لندن واحداً من افضل العملاء اذ انه دقيق ومحدود الافق ولا يمكن اثارته بسهولة . ويعتقد المسؤولون انه يدير شبكة من العملاء الثانويين في ارجاء المانيا . ويحافظ ترپ على اتصالاته بالمقر الرئيس من خلال التقارير التجارية التي يرسلها الى شركته . ولكن الحقيقة التي يجهلها المقر الرئيس هي انه لايستخدم أي عميل ثانوي اطلاقاً وانما يقوم هو باختلاق جميع التقارير التي يرسلها باسماء هؤلاء العملاء وعندما تعبر لندن عن سخطها تجاه أحد العملاء يقوم بفصله بكل بساطة ويعين عميلاً وهمياً آخر محله . وبديهي انه كان يقبض الرواتب ويقدم قوائم مصاريف نيابة عن عملائه الوهميين . ويوحي اليه خياله الخصب باختلاق تفاصيل معمل سري كبير قرب لايبزغ لانتاج المتفجرات . تقع مشكلة صغيرة بينه وبين الشرطة المحلية وتعلم لندن من أحد مصادرها المستقلة ان العميل (ب ٧٢٠) مراقب وترسل اليه تحذيراً عاجلاً ، الا ان التحذير يأتي متأخراً جداً .

تنظم الجمعية الانكلو ـ لاتيستية حفلة اوپرا عن غلبرت وسوليڤان ويؤدي فيها ترپ دوراً رئيساً . في ختام الحفلة يرسل مدير الشرطة الذي كان جالساً في الصفوف الامامية في القاعة باقة ورد الى ترپ ومعها بطاقة يطلب فيها منه أن يتناولا معاً قدحاً في غرفة ملابس ترپ . وهناك يخبره بأن السفارة الالمانية قد اشتكت من أنشطته ، وهنا لايجد ترپ بداً من الاقرار بأن الأمر كله كان مجرد خدعة وانه كان يقوم بهذه الأنشطة بقصد التضليل فقط .

وتخطر على بال مدير الشرطة فكرة . ان استمرار بقاء ترب من شأنه ان يبعد احتمال قدوم أي عميل حقيقي . تعجبه فكرة استمرار ترب في عمله عميلاً مزيفاً ويقبل منه ماكنة خياطة هدية لزوجته . ويتعهد له بضمان خروج رسائله من البلاد بسلام وان يقوم بارضاء السفارة الالمانية من خلال السماح لها بالقاء نظرة على الرسائل قبل ارسالها . ويصل تحذير لندن بعد اللقاء بين الرجلين مباشرة ويقوم ترب بارسال رسالة جوابية يعلن فيها انه قد عين مدير الشرطة نفسه بوصفه أحد عملائه ويرفق مع رسالته التقرير الأول لمدير الشرطة عن الشخصيات السياسية الرئيسة في ليتستيا ويطلب من لندن ارسال طابع مثلث الشكل ونادر الى مدير الشرطة عربونا له لقاء خدماته وذلك لكونه من هواة جمع الطوابع المتحمسين . وعندما وصل الطابع حفظه ترب في البومه الخاص . ويجد ترب في ذلك وسيلة سهلة للحصول على ما يريد من الطوابع ، مما يثير انتباه رئيس الجهاز في لندن فيقول لضابط المقر الرئيس المسؤول عن ترب :

ـ يبدو ان جميع عملائه من هواة جمع الطوابع .

ـ الطوابع أهون من غيرها . هل تذكر عملاء صاحبنا ستوت فجميعهم كانوا يطلبون لوحات فنية من پاريس .

ـ وهل لدى ستوت ما يعمله في الوقت الحاضر ؟

ـ كلا .

ـ إذن ارسله ليلقي نظرة على تنظيم ترب فقد يكون بمستطاعه تقديم بعض النصح اليه . اعتقد انه يجب السماح لرجلين جيدين بالالتقاء .

(٢)

ستوت أكبر سناً من ترب بعدة سنوات . أنفه يشبه القنينة وله بطن مدور وعينان غير مستقرتان . يقلق ترب بشأن الزيارة ويتوقع ان تكتشف خدعته في أية لحظة . ولكن لحسن حظه يجد ان ستوت مهتم بالطعام والنبيذ وبحياة الليل في ليتستيا اكثر من اهتمامه بتفاصيل تنظيم ترب مما يدفعه الى التساؤل مع نفسه عما اذا كان ستوت نفسه يدير تنظيماً وهمياً كما يفعل هو ، ولكن سرعان ما يطرح هذه الفكرة جانباً لعدم وجود دليل يسندها .

وفي الليلة التي يلتقي فيها الرجلان يقول ستوت لترب :

ـ والان الى المواخير ياصديقي ، أظن ان لك اتصالات جيدة هناك .

لم يذهب ترب في حياته الى ماخور فيجد نفسه مضطراً الى الاعتراف بانه أغفل هذه الناحية .

ـ انها مهمة جداً ياصديقي . كل رجال الاعمال الذين يزورون مدينة ما يذهبون الى المواخير . لابد من تغطيتها .

يقوم الرجلان بجولة ليلية في المدينة وعندما يعود ترب الى البيت في الثانية صباحاً يقع في مشكلة مع زوجته .

ينتقل ستوت الى برلين ولكنه يبذر بذور أفكار جديدة في ذهن ترب . فمنذ الان سيتبع عملاؤه الوهميون خطى ستوت . يتقدم بعدة طلبات الى لندن في فترات زمنية قصيرة يطلب فيها الموافقة على استخدام صاحبة أحد بيوت الدعارة ذي المستوى الراقي ومغنية ملهى وممثلة سينمائية معروفة يصفها بانها عشيقة العميل (ب ٧٢٠) أي عشيقته

هو . ويعد اختلاق هذه الوظيفة للممثلة السينمائية من أعماله التي تدل على خصب خياله على الرغم من انه لم يكلم الممثلة قط في حياته وليست لديه أية فكرة في انها عميلة المانية حقاً .

(٣)

تثار أزمة ثانية ومواجهتها تحتاج الى حنكة أكبر من تلك التي عرف بها ستوت . يزداد خطر نشوب الحرب في اوربا وتعد لندن موقع ترب في ليتستيا من المواقع الحساسة ، ولذلك تقرر انه لابد من توفير الكادر المناسب له . تُقنع شركة سنغر لمكائن الخياطة بتوسيع فرعها في ليتستيا خدمة لمصلحة البلد وتخبر الشركة ترب بأنها سترسل سكرتيرة وموظفاً للعمل معه في فرع الشركة . يشعر ترب بفرح طفولي ظاناً ان الجهود التي قام بها من أجل شركة سنغر قد اثمرت وأن الاقبال على مكائن الخياطة قد ازداد الى هذه الدرجة . الا أن فرحته لاتدوم كثيراً عندما يصل الموظف والسكرتيرة ويظهر انهما من العاملين في الشرطة السرية وقد ارسلا لمعاونته في ادارة تنظيم عملائه الذي اصبح معقداً .

الموظف الجديد شاب يتحدث بلهجة عامية حادة ولديه قابلية كبيرة على تمجيد الابطال وكذلك البطلات . يبدي اعجابه الكبير بتجربة ترب وشجاعته . ويركز جزءاً كبيراً من اهتمامه في سيقان زوجة ترب وصدرها . اسمه كاب ومن عاداته السيئة توجيه الاسئلة المزعجة . وفي هذا الصدد يقول :

ـ لاتشغل نفسك في شرح الامور لي ياسيدي ، إسمح لي فقط بالبحث

وبتوجيه الاسئلة وتأكد أنني سأصل الى معرفة حقيقة الاشياء بنفسي .

واما السكرتيرة واسمها الانسة جيكسون فهي عانس ذاوية في الرابعة والاربعين من عمرها . من طبعها أن تنظر الى جميع الاشخاص والاشياء بعين الريبة . وتعتقد أنه حتى اكثر العاملين براءة هم من عملاء المخابرات . لاتعجبها الترتيبات الأمنية في المكتب وترى انها تفتقر الى الكثير من المقومات الاساسية . تصر على حفظ قطع الورق النشاف كلها في الخزانة كما تصر على اخراج شريط الالة الكاتبة كل يوم عند اغلاق المكتب . يؤدي اصرارها هذا الى حدوث صعوبات نظراً لانه ليس هناك في المكتب من يجيد تثبيت شريط الالة الكاتبة . وكلما تجد شريطاً مستعملاً مرمياً في سلة المهملات بدلاً من احراقه في المحرقة تبدأ بشرح الاخطار الناجمة عن قيام شخص ما بفك رموز الكلمات المطبوعة والباقية آثارها على الشريط . وتقوم باستعراض عملي لاستخراج آثار الكلمات الباقية على الشريط ولم تفلح الا في ترتيب جملة واحدة من هذه الرموز وهي : «ليست هناك شفاه حمر كشفاهك وليست هناك عيون صافية كعيونك» .

ولم تكن هذه الا بيتاً من قصيدة كتبها كاب وهو يفكر ، على مايبدو ، في السيدة ترب . أما السيدة ترب فتقول عنه :

ـ انه لطيف حقاً .

المشكلة الرئيسة التي ينبغي لترب مواجهتها هي كيفية إخفاء الحقيقة وهي انه ليست هناك في الواقع أية مصادر حقيقية للتقارير التي يرسلها . وفجأة يجد الحل بسهولة كبيرة . يذهب الى السوق ويعود حاملاً عدة مظاريف يدعي انها سُلمت اليه من تحت النضد . يتظاهر

ببذل مجهود كبير في فحص رسائل عادية جداً عن مكائن الخياطة وذلك للتظاهر بأنه يبحث عن حبر سري .

يرافق كاب في جولة بالمدينة ، وبين الحين والاخر يشير الى بعض الاشخاص الجالسين في المطاعم مدعياً انهم من عملائه ويقول :

ـ انه رجل حذر جداً . سترى كيف سيتظاهر بعدم معرفتنا ولن يبدي حتى ايماءة تدل على أن بعضنا يعرف بعضاً .

والمشكلة الاخرى التي تثار هي مشكلة الرواتب الشهرية المدفوعة الى العملاء . الانسة جيكسون تعترض بشدة على قيام ترب بتسليم الرواتب شخصياً وتقول :

ـ انه تصرف غير اصولي وفيه مخاطرة . المقر الرئيس لايوافق عليه مطلقاً .

وعند هذا الحد وارضاءً لمساعديه يقوم ترب برسم مخطط تفصيلي مثير للاعجاب لمصادره التي يحصل منها على المعلومات ويبين في المخطط العملاء الرئيسين المباشرين الذين يدير كل واحد منهم مجموعة خاصة . وتصر الانسة جيكسون على ان عليه منذ الان ان يقطع اتصالاته الشخصية بالجميع ماعدا العملاء الرئيسين (ومنهم ممثلة السينما) وعلى أن يقابلهم كل مرة متخفياً في زي مختلف .

يصبح التنكر اللعنة التي تحل على حياة ترب ومما يزيد الطين بلة ان زوجته لاتعلم شيئاً عن الموضوع . وتظهر الانسة جيكسون براعة فظيعة في عملها وتصادر علبة المكياج التي كان ترب يستعملها في الاعمال الاوپراليه للجمعية الانكلو ـ ليتستية . ويجد ترب نفسه مضطراً الى الخروج من الابواب الخلفية وهو يضع على رأسه ضفائر

حمراً وأن يعود من خلال الباب الرئيس واضعاً ضفائر سوداً . وتجبره الانسة جيكسون على أن يحمل معه في جيوب معطفه قبعتين مختلفتي اللون على الأقل حتى يتمكن من تغيير قبعته باستمرار . وتتكور جيوب سترته بنظارتين إحداهما ذات اطار مصنوع من قرن الحيوانات والاخرى ذات إطار معدني .

يترك الارهاق آثاره عليه ويصبح سريع الغضب . واما السيدة ترپ فيكثر لجوؤها الى البكاء وذرف الدموع . ويحتار كاب بين عبادة البطل وعبادة البطلة .

(٤)

الأزمة التالية : يبدأ العدو النظر بجد الى أنشطة ترپ . ويدرك ترپ انه ملاحق حيثما ذهب . وهناك من يراقبه حتى عندما يذهب لحضور الامسيات الموسيقية للجمعية الانكلو ـ ليتستية مثل أمسية مع ادوارد جيرمان وڤون ولیامز . لقد كانت الترتيبات الأمنية التي قامت بها الانسة جيكسون أفضل مما يجب بحيث لم يعد الالمان قادرين على الاطلاع على التقارير التي يرسلها السيد ترپ .

تعترض الانسة جيكسون على استخدام مدير الشرطة وسيطاً لارسال التقارير وتقوم بتطوير اسلوب تفصيلي ترسل من خلاله رسائل مكتوبة بحبر سري على طوابع البريد . (وهنا تلمح الانسة جيكسون باستحياء الى امكانية استخدام ذَرْق الطيور كحبر سري) ولسوء الحظ لم يطور هذا الحبر بالشكل المناسب والكلمات تظهر وتختفي بسرعة

مدهشة .

ولكي يتمكن ترپ من تزوير قائمة مصروفات وتضمينها مبالغ كبيرة ضمن فقرة الترفيه فانه يضطر الى تناول العشاء ثلاث مرات في الاسبوع خارج البيت . المشكلة انه يكره طعام المطاعم كما انه لايستطيع أن يذهب الى المطاعم وحده لأن في ذلك مخاطر كبيرة اذا رآه أحد مساعديه . لذلك يستأجر غرفة في الضواحي ويلجأ اليها ليقرأ فيها بهدوء لكاتبيه المفضلين شارلز لامب ونيوبولت . واحياناً ينكب على كتابة تقرير مزيف بعد أن ياخذ معه قليلاً من الطعام من خزانة الأطعمة . ويؤشر هذا في دفتر حساباته كالآتي :

عشاء لثلاثة اشخاص (مصادر سياسية)
مع النبيذ والسيكار وغيرها : خمسة پاونات وعشرة شلنات .

لم تكن عملية تناول العشاء في المطاعم ضرورية في السابق قبل وصول مساعديه ، كما تمتعض السيدة ترپ من ذلك .

تبلغ الأزمة الداخلية ذروتها عندما يتظاهر ترپ في يوم دفع الرواتب بأنه ذاهب الى بيت ممثلة السينما لزيارتها وليدفع اليها رواتب العملاء التابعين لها . يقوم كاب بالحراسة في الشارع ويتقدم ترپ نحو شقة الممثلة وقد وضع على وجهه شارباً اصطناعياً . يضغط على زر الجرس ويسأل عن شخص وهمي . يقفل راجعاً بعد ان يغلق الباب خلفه وفي اللحظة نفسها تظهر السيدة ترپ وهي نازلة من الطابق العلوي بعد ان قامت بزيارة صديقة لها تسكن في الشقة الواقعة فوق شقة الممثلة. يحاول ترپ تبرير وجوده هناك بأنه كان يحاول بيع ماكنة خياطة ، الا ان

حجته تبدو واهية في نظر زوجته بسبب الشارب المزيف الذي يضعه على وجهه .

يتعرض التماسك العائلي لصدمات اخرىٰ عندما يخبر كاب السيدة ترپ بكل شيء أو بما يعتقد انه كل شيء وذلك بدافع الحرص على اصلاح ذات البين بين البطل والبطلة ويقول لها :

ـ انه يفعل ذلك من أجل الوطن ياسيدة ترپ .

تقرر السيدة ترپ ان تقوم هي ايضاً بعمل من اجل الوطن فتبدأ بتناول العشاء خارج البيت . يغتنم ترپ الفرصة وبدلاً من ان يستاء من تصرفها يعينها عميلة تعمل عنده ويذكر في طلب الموافقة على تعيينها أن لها عشيقاً يعمل في وزارة الخارجية . وفي لندن يعلق رؤساؤه على طلبه قائلين :

ـ ان هذا الرجل يستحق وساماً ، فالواجب عنده أهم من زوجته . باللعرض الرائع الذي يقدمه .

وتعد عشيقته الوهمية وعشيق زوجته الوهمي من أطرف مصادر المعلومات العاملين لديه ، ولكن لسوء الحظ أن زوجته لاتعتقد أن عشيقته وهمية كما ان الشخص الذي يرافقها الى المطاعم ليتناول العشاء ليس موظفاً وهمياً من موظفي وزارة الخارجية وانما هو في الحقيقة شاب يعمل في وزارة الزراعة والثروة السمكية . تعلم السيدة ترپ بأمر مخبأ زوجها وتقرر ملاحقته وهي واثقة بانها ستفاجيء زوجها بصحبة الممثلة ولن يستطيع الادعاء أنه كان منهمكاً في أعمال معينة لمصلحة الوطن . العدو ايضا يكتشف مخبأه .

(٥)

السيد ترپ جالس في الغرفة وقد وضع قدميه فوق الموقد وفي جيبه بعض فطائر المقانق . يحمل ديواناً لشاعره المفضل نيوبولت ويدندن بصوت عالٍ وغير مفهوم بأبيات من الديوان . هذا هو اسلوبه في قراءة الشعر .

«أثبت جدارتك ، أثبت جدارتك في اللعب ،

العمداء في مظهرهم الوقور جالسون فوق المنصات ...»

يندهش عندما يسمع طرقاً على الباب . يفتح الباب وتزداد دهشته أكثر عندما يجد أمامه عميلته الوهميـة ممثلة السينمـا . لقد تعطلت سيارتها في الخارج : فهل بوسعه مساعدتها ؟ وفي السيارة الواقفة قرب البيت يختبيء اثنان من القتلة المأجورين وقد استعدا لتوجيه ضربة الى رأس ترپ عندما تستدرجه الممثلة الى السيارة . وهناك شخص ثالث وقف يراقب في نهاية الشارع وهو رجل الماني طويل القامة تدل ملامحه على الغباء ولكنه قوي البنية وذو مظهر عاطفي . يجيبها ترپ بانه لايفهم في السيارات وان اختصاصه مكائن الخياطة فاذا كانت لديها مـاكنة خياطة عاطلة ...

تتقدم السيدة ترپ في الشارع وهي تبحث عن مخبأ زوجها . ويبدو انها قد ضلت الطريق . في هذه الاثناء يكون ترپ منهمكاً في شرح المزايا الخاصة بمكائن خياطة سنغر وعرضها . تجد السيدة ترپ نفسها في وضع بائس وتشعر بالبرد . تتكيء على سياج أحد البيـوت وتجهش بالبكاء . الرجل الالماني ذو المظهر العاطفي واقف على مسافة قـريبة

منها . يراها ويشفق عليها ولكن لديه واجب عليه ان يلتزم به . يقترب منها . السيد ترپ يتحدث الى ممثلة السينما عن الشعر .... السيدة ترپ تبكي على كتف الشاب الالماني وتخبره كيف ان زوجها يخونها مع امرأة اخرى في هذه اللحظة تماماً ولكنها لاتتذكر رقم البيت الذي يوجد فيه زوجها ...

يشعر الرجلان الالمانيان المختبئان في السيارة بالبرد فيخرجان ويأخذان في السير جيئة وذهاباً ... ترپ يقرأ بعضاً من أشعار نيوبولت للممثلة ...

«يربت الآمر كتفه بيده ...»

ينظر الرجل الالماني والسيدة ترپ من خلال النافذة . لم يدرك ان لهذا الزوج الخائن أية صلة به .

تئن السيدة ترپ وتقول له :

ـ خذني بعيداً من هنا .

يطاوعها حالاً ويذهب بها الى سيارة زميليه . يحاول أحدهما ايقافه ولكنه يطرحه أرضاً دون أن يهتم بمعرفة من هو هذا الشخص لأن عواطفه أخذت تجيش في صدره فلم يعد يهتم بشيء سوى السيدة ترپ . يوصلها الى منزلها .

كان ترپ منهمكاً في قراءة الشعر عندما سمع طرقاً ثانياً على الباب . أحد الرجلين الالمانيين اللذين كانا في السيارة يسحب زميله الذي مايزال فاقد الوعي الى الداخل ويقول عدة جمل بالالمانية لتوضيح الأمر . تتولى الممثلة شرح الموقف :

ـ كان يحاول اصلاح السيارة وقد هرب بها أحدهم .

فيجيب ترپ :
ـ سأتصل بمرآب اصلاح السيارات .
ويدخل لاجراء المكالمة الهاتفية . جهاز الهاتف موجود في فجوة في الجدار وهو مخفي عن الاعين . اما الالمانيان فيستعدان لضربه .
يصيح ترپ بعصبية :
ـ الرقم خطأ ، انه رقم الشرطة .
وعندما يعيد سماعة الهاتف الى مكانها توجه ضربة قوية الى رأسه ويطرح ارضاً .

(٦)

منذ أيام والسيد ترپ بعيد عن البيت . يشعر كاب والانسة جيكسون بالقلق . السيدة ترپ غاضبة ولكنها تجد من يعزيها .
يستعيد ترپ وعيه داخل السفارة الالمانية . يحاول المسؤولون في السفارة اجباره على كشف اسرار منظمته بممارسة ضغوط شديدة عليه ولكنه لايكشف شيئاً لانه ليست هناك أية منظمة ليكشف امرها . يتخذ التهديد المقرون بالاكراه الشكل الآتي : لديه خياران ، إما أن يبقى في السفارة سجيناً الى ان تنشب الحرب ، وعند ذاك يُسلم الى الجستاپو بوصفه جاسوساً ، أو أن يوافق على ارسال رسالة الى لندن تحتوي على معلومات كاذبة وملفقة بمهارة بهدف تشويه سمعته واضعاف الثقة به ، وفي هذه الحالة سوف يطلقون سراحة في الوقت المناسب . تعرض عليه افلام عن معسكرات الاعتقال ويمنعونه من النوم . يحتجز في غرفة مع

الرجل الالماني ذي المظهر العاطفي الذي يعاقب هو الاخر . وكلما يحاول النوم يوقظه الرجل الالماني ويعاتبه بسبب خيانته زوجته .

يهييء السفير الالماني بالتعاون مع الملحق العسكري الرسالة التي يؤمر بارسالها الى لندن . وعلى ورقة منفصلة يدون الملحق العسكري عدداً من الحقائق التي يجب ابقاؤها طي الكتمان ومنها تاريخ الغزو وعدد الفرق المشاركة في الهجوم وغير ذلك . واما المعلومات الملفقة التي يريدون ايصالها الى لندن فانها مدونة على ورقة منفصلة . تختلط الورقتان بفعل نسمة هواء تهب من النافذة المفتوحة فيسلمون اليه الورقة التي تحتوي على المعلومات الحقيقية ويأمرونه بكتابتها بالحبر السري . يوافق ترب مرغماً ومبرراً تصرفه بان ارسال رسالة أخيرة تحتوي على معلومات زائفة هو ثمن قليل نسبياً لابد من دفعه .

وفي محاولة من الالمان للقضاء على الثقة بترب ولكي يضمنوا ألا يصدق رسائله احد بعد الان يطلبون من مدير الشرطة ان يذهب الى السفارة البريطانية وان يكشف تعامل ترب معه أي تلك الرسائل المختلقة التي كانت تعرض على الالمان قبل ارسالها الى لندن . ويترك مدير الشرطة لدى المسؤولين في السفارة البريطانية انطباعاً أن ترب كان يعلم أن الالمان يطلعون على تقاريره التي يرسلها الى لندن .

تعتقل الشرطة ترب مباشرة بعد مغادرته السفارة الالمانية ويرافقه بعض أفراد الشرطة الى بيته حيث يسمح له بحزم حقيبة واحدة فقط . السيدة ترب غير موجودة في البيت . يعرض عليه كاب برقية مرسلة من لندن بشفره وتقول : «اطرد العميلة اكس واي ٢٧ (زوجته) . لقد ظهر من خلال الرسائل المتبادلة بينها وبين صديقة لها من ايام الدراسة أن

لها علاقة مع ... من وزارة الزراعة والثروة السمكية وليس مع ... من وزارة الخارجية . لايعتمد عليها» .

يودع ترپ كاب والانسة جيكسون ويلقي نظرة وداع على بيته وعلبة المكياج التي اهدتها اليه الجمعية الانكلو ـ ليتستية وكذلك على مجموعته من اعمال غلبرت وسوليڤان . ويفرغ جيوبه من الشارب الاصطناعي والقبعات المطاطية والنظارات ويقول للانسة جيكسون بصوت حزين :

ـ هذه هي سبب كل المشاكل .

يُسَفر الى انكلترا على احدىٰ الطائرات .

في المقر الرئيس توضع الترتيبات لاجراء تحقيق رسمي معه ، يرد التقرير الذي بعثه السفير البريطاني عن ترپ قبل وصوله ولكن الاراء تختلف بشأنه . المشكلة ان قيادة الجيش كانت ترحب بتقاريره وتعدها مفيدة . وخلال السنتين الماضيتين أرسل المئات من التقارير التي عدت «ثمينة جداً» والمشكلة التي يواجهها المسؤولون في المخابرات هي انه سينظر اليهم بوصفهم أناساً اغبياء اذا ما حاولوا سحب كل تلك التقارير وعدوها ملغاة . ويشير رئيس لجنة التحقيق الى ان مثل هذا الاجراء من شأنه تشويه سمعة الجهاز كله ، اذ انه كان بمستطاع أي شخص آخر ان يفعل الشيء نفسه وان يتصرف كما تصرف ترپ ولذلك سينظر اليهم جميعاً بعين الريبة في المستقبل .

يصل ترپ الى المقر الرئيس ويذهب أصغر اعضاء اللجنة ، وهو شاب أنيق جاد المنظر من طراز موظفي وزارة الخارجية ، لاستقباله ومرافقته الى حيث تجتمع اللجنة التحقيقية .

وعندما يلتقيه يهمس في اذنه :
ـ كل شيء سيكون على مايرام . انكر كل شيء .
يفتتح رئيس اللجنة التحقيق قائلاً :
ـ لو انه لم يرسل التقرير الاخير لاختلفت الامور . تقاريره الاخرى جميعاً مثيرة للجدل وتقبل التأويل . تتذكرون بلاشك المعامل السرية في لايبزغ ، لايمكننا حتى الان أن نجزم أنها كانت موجودة حقاً . لقد أعجب الجنرال هايز بذلك التقرير خاصة وعدّه تقريراً نموذجياً واستعملناه في دوراتنا التدريبية . أما هذا التقرير الاخير فانه يعطي تاريخ الهجوم وحتى ساعة الصفر . ولا يمكن أن تحوم أية شبهات على المصدر الذي استقى منه ترپ تلك المعلومات أي الملحق العسكري الالماني . ويقول في تقريره ان الفرق كذا وكذا ستقوم باختراق الحدود في الساعة العاشرة من هذا اليوم . ولو لم يكن سفيرنا قد ارسل معلومات مشابهة تؤكد مضمون هذا التقرير لكنا محاطين الان بضباط من الجيش والبحرية والطيران يستفسرون عن الشخص الذي كتب هذه الترهات . تفضل ياسيد ترپ واجلس . انها مسألة خطيرة . انك تعلم بلا شك طبيعة الاتهامات الموجهة اليك .
فيجيبه ترپ :
ـ انا اعترف بكل شيء .
ويهمس الشاب الانيق بانفعال :
ـ كلا كلا ، قلت لك انكر كل شيء .
فيقاطعه رئيس اللجنة ويقول بانفعال ايضاً :
ـ قد لاتستطيع الاعتراف بكل شيء . سنخبرك بما تعترف به وبما

تنكره ، من المؤكد أن هذا التقرير الاخير...

يرن جرس الهاتف فيرفع رئيس اللجنة السماعة :

ـ نعم نعم ، يا إلهي .

يعيد السماعة الى مكانها ويقول مخاطباً لجنة التحقيق :

ـ لقد عبر الالمان الحدود البولندية هذا الصباح . وفي ضوء هذه التطورات اعتقد ، ياسادة ، ان علينا ان نهنيء السيد ترپ على ارساله تقريره الاخير هذا من ليتستيا . ومن سوءالحظ ان بعض الاجراءات العقيمة في السفارة البريطانية قد حالت دون الاستفادة من التقرير ولكن كما تعلمون هذا هو حظ المخابرات دائماً . المهم نستطيع أن نقول وبثقة أن المخابرات كانت على علم بتاريخ وحتى بساعة نشوب الحرب .

يقلد ترپ وسام الامبراطورية البريطانية كما يعين رئيساً للمحاضرين في دورة خاصة لموظفي المخابرات . نراه آخر مرة وهو يتقدم نحو اللوحة حاملاً بيده عصا . يقدمه أحد المسؤولين الى المشتركين في الدورة على هذا النحو :

أقدم اليكم السيد ريجارد ترپ أحد أقدم ضباطنا وأفضلهم ـ الرجل الذي تمكن من الحصول على معلومات مسبقة ودقيقة عن تاريخ وحتى ساعة بدء الهجوم الالماني . سيلقي عليكم محاضرة بعنوان : «كيف تدير شبكة للتجسس في الخارج» .

الرجل العاشر

الجزء الاول

(١)

لم تكن لدى اكثرهم وسيلة يعرفون بها الوقت سوى مواعيد تقديم الطعام وهذه بدورها كانت غير دقيقة وغير منتظمة . كانوا يسلون أنفسهم خلال ساعات النهار بالعاب طفولية وعندما يحل الظلام ينامون بوداعة دون أن ينتظروا ساعة محددة من الليل . وأما ما يتعلق بالوقت الصحيح فقد كان لكل سجين توقيته الخاص . عندما ألقي بهم في السجن كان الاثنان والثلاثون سجيناً يمتلكون ثلاث ساعات يدوية جيدة وساعة كبيرة ذات منبه . وكانت هذه الساعة قديمة ، و ـ حسب ادعاء اصحاب الساعات اليدوية ـ غير دقيقة . اختفت اولاً اثنتان من الساعات اليدوية : فقد استدعي صاحباها في الساعة السابعة ـ أو السابعة وعشر دقائق حسب توقيت الساعة ذات المنبه ـ في صباح أحد الايام وبعد ساعات من اليوم نفسه ظهرت الساعتان من جديد ولكن على معصمي اثنين من حراس السجن ومازالتا حتى الان .

وهكذا لم تبق لديهم سوى ساعتين ، الساعة ذات المنبه وتعود لسائق قطار اسمه پيير وساعة فضية كبيرة الحجم ذات سلسلة وتعود لمحافظ مدينة بورج . سرعان ماظهرت روح المنافسة بين الرجلين فكانا يريان أن الوقت يعود لهما فقط وليس للرجال الثمانية والعشرين

الاخرين . وكان ثمة نوعان مختلفان من الوقت.كانت كل ساعة تظهر الوقت مختلفاً عما تظهره الساعة الاخرىٰ وكل واحد من الرجلين يدافع عن الوقت الذي تظهره ساعته بحماس كبير على أنه هو الوقت الصحيح . وقد ادىٰ هذا الحماس الذي كان يظهره الرجلان الى التفريق بينهما وبين رفاقهما في السجن ، فقد اعتادا أن يقضيا معظم ساعات النهار معاً في زاوية معينة تحت المظلة الكونكريتية الكبيرة وكانا يتناولان الطعام معاً بعيداً عن السجناء الاخرين .

ذات مرة نسي المحافظ أن يوقت ساعته . كان يوماً تكاثرت فيه الاشاعات ، ففي الليلة السابقة سمعت أصوات اطلاق النار في المدينة تماماً كما حدث في اليوم الذي اقتاد فيه الحرس السجينين اللذين كان كل منهما يمتلك ساعة يدوية . ساد الخوف والهلع بين السجناء وبدأت كلمة «رهينة» تكبر في ذهن كل واحد منهم كغيمة ثقيلة تأخذ شكل الحروف بفعل الريح . انتشرت في السجن افكار غريبة وازداد المحافظ وسائق عربة القطار التصاقاً واقتراباً من بعضهما . وقد خيل اليهما أن الالمان تعمدوا اختيار الرجلين اللذين كانا يحملان الساعتين حتى يحرموهم من معرفة الوقت ، وذهب المحافظ أبعد من ذلك فاقترح على رفاقه في السجن أن يخبئوا الساعتين المتبقيتين لديهم لأن ذلك افضل من أن يفقد الجميع الخدمة التي تقدمها الساعتان . ولكن عندما بدأ ينطق الكلمات بدت له الفكرة دليلاً على الجبن ، مما جعله يتراجع عن اقتراحه ويمسك عن الكلام في منتصف الجملة .

سواء أكان لهذا السبب أم لغيره نسي المحافظ أن يوقت ساعته في تلك الليلة . وعندما انبلج الصبح في اليوم التالي الى حد يكفي معه رؤية

صفحة الساعة استيقظ المحافظ فسأله پيير :

ـ كم الساعة الان ؟ ماذا تقول التحفة الاثرية ؟

نظر المحافظ الى ساعته فرأى العقارب قد توقفت وهي تشير الى الواحدة الا ربعاً . بدت له عقارب الساعة كأنها حطام أسود مهمل . كانت تلك أسوأ لحظات حياة المحافظ على الاطلاق . شعر بانها أسوأ حتى من اليوم الذي اقتاده الالمان الى السجن ، فالحياة في السجن لاتترك احساساً إلا وتصيبه بشيء من الخلل . ومن أوائل الاحاسيس التي يفقدها السجين الاحساس بالأبعاد وبالنتائج الفعلية للاشياء . أجال المحافظ ببصره بين الوجوه وكأنه قد ارتكب جريمة بحق رفاقه . نعم لقد تخلى عن الوقت الحقيقي الوحيد لديهم . شكر الله لأنه لم يكن هناك شخص آخر من مدينة بورج معهم في السجن . كان هناك حلاق من مدينة اتيان وثلاثة موظفين وسائق شاحنة وبائع خضروات وبائع سكاير . كل من كانوا في السجن معه ماعدا رجلاً واحداً كانوا من مستوى اجتماعي ادنى من مستواه . وعلى الرغم من انه كان يشعر بمسؤولية أكبر تجاههم ، الا انه كان يشعر ايضاً بان من السهل عليه خداعهم . ففكر في أن من الافضل ان يلجأ الى هذا السبيل لانه بذلك سيقدم لهم خدمة حسب اعتقاده ، إذ من الافضل لهم ان يعتقدوا انه ، مازال في وسعهم معرفة الوقت الحقيقي بدلاً من اللجوء الى الحدس الاعتباطي او تسليم أمرهم الى ساعة پيير المستعملة .

قام بعملية حسابية سريعة مستنداً الى مقدار الضوء الشاحب النافذ الى داخل السجن من خلال القضبان وقال بثبات :

ـ الساعة الان الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرون .

التقت نظراته نظرات الشخص الوحيد الذي كان يخشى ان يكشف امره وكان هذا محامياً من باريس يدعى شافيل ، وهو رجل انطوائي النزعة يلجأ بين الحين والاخر الى القيام بمحاولات غريبة ليثبت انه ما يزال يحتفظ بانسانيته . وكان معظم السجناء ينظرون اليه بوصفه حالة شاذة او مجرد نكتة . فلم يكن المحامي في رأيهم شخصاً يمكن أن يعيش معه الانسان فترة طويلة ، بل انه كان أشبه بدمية كبيرة يخرجها صاحبها من الخزانة في مناسبات خاصة فقط ، وكان المحامي يبدو لهم وهو في السجن أشبه بدمية فقدت رداءها الاسود .

رد بيير قائلاً :

ـ هذا هراء . ماذا حدث للتحفة الاثرية ؟ الساعة الان السادسة الا ربعاً .

فأجابه المحافظ :

ـ ان ساعة رخيصة كساعتك لابد أن تسبق دائما .

وهنا تدخل المحامي وقال بحدة وكأنه اعتاد الكلام بهذا الاسلوب :

ـ يوم أمس قلت انها كانت متأخرة .

منذ تلك اللحظة تماماً بدأ المحافظ يكره شافيل . فقد كان يعد نفسه وشافيل الرجلين الوحيدين اللذين يتمتعان بمنزلة معينة من بين السجناء وقال لنفسه : «لو كنت محله لما تخليت عن صاحبي على هذا النحو» وسرعان ما بدأ يبحث عن تفسير لتصرف المحامي تجاهه على هذا النحو . لم يكن المحامي يتحدث الى بقية السجناء الا نادراً ولم يكن لديه أي اصدقاء ، ومع ذلك فقد فسر المحافظ تصرفه بأنه «يسعىٰ الى

الحصول على شعبية لنفسه ويعتقد انه سيحكم هذا السجن . يريد ان يصبح دكتاتوراً» .

قال بيير :

ـ لنلقي نظرة على التحفة الاثرية .

ولكن الساعة كانت في مكان أمين ، فقد ربطها المحافظ بسلسلة فضية ووضعها بين الاختام والقطع النقدية المعدنية في جيب الصِّدار تحت السترة ولم يكن في وسع أحد خطف الساعة ، وما كان من المحافظ الا ان استهزأ بهذا الطلب .

الا انه كان يوماً ذا شأن في تفكير المحافظ ، يوماً من تلك الايام الحاسمة التي تتميز بقلق رهيب في حياة الانسان ويمكن ان تكون بداية لتقويم خاص ، يوماً كيوم زواجه أو يوم ولادة أول طفل له او يوم اجراء انتخابات المجلس البلدي او يوم وفاة زوجته . على أية حال كان كل تفكيره منصباً على ايجاد وسيلة يستطيع بها أن يوقت ساعته من جديد وأن يقدم عقاربها لتشير الى وقت معقول وذلك دون أن ينتبه اليه أحد . ولكنه شعر ان نظرات المحامي الباريسي كانت تلاحقه طوال اليوم . مسألة توقيت الساعة نفسها مسألة بسيطة فكل ساعة مهما كانت دقيقة يجب أن توقت . وحتى يتدبر الامر ماكان عليه سوى أن يوقت الساعة الى النصف وأن يديرها في وقت لاحق مرة أو مرتين متظاهراً بالنسيان وشرود الذهن . ولكن حتى هذه العملية لم تمر دون أن يلاحظها بيير فسأله بارتياب :

ـ ماذا تفعل ؟ لقد وقتها مرة قبل الان . هل بدأت التحفة الاثرية تتحطم ؟

فقال المحافظ :

ـ لقد نسيت .

ولكنه في الواقع لم يكن يفكر في شيء آخر سوى الساعة وكيفية ايجاد الفرصة المناسبة لتصحيح الوقت الذي تشير اليه إذ كانت ساعته متأخرة عن ساعة بيير خمس ساعات . ولكنه لم يتمكن من العثور على هذه الفرصة المناسبة حتى عندما كان يذهب للتغوط ، فقد كانت دورة المياه صفاً من الجرادل الموضوعة في ساحة السجن ولتسهيل مهمة الحراس لم يكن يسمح لأحد من السجناء بالذهاب الى الجرادل وحيداً ، بل كان عليهم الذهاب في مجموعات من ستة أشخاص على الاقل . ومن ناحية اخرى لم يكن في وسع المحافظ أن ينتظر حتى حلول الظلام ، إذ لم يكن يسمح لهم باشعال النور في الزنزانات ومن غير ضوء كاف لم يكن بالامكان رؤية عقارب الساعة . طوال ذلك اليوم بقي المحافظ محتفظاً بسجل ذهني لتقدم الوقت متحيناً الفرصة التي يتمكن فيها من تصحيح الساعة .

واخيراً واتته الفرصة المناسبة في المساء عندما حدث شجار بين السجناء في لعبة ورق بدائية كانوا قد طوروها وصنعوا الاوراق الخاصة بها بانفسهم وقد اعتاد بعض الرجال قضاء الوقت في ممارسة هذه اللعبة . إتجهت الانظار الى اللاعبين فأغتنم المحافظ الفرصة واخرج الساعة من جيبه وقدم عقاربها بسرعة .

سأله المحامي :

ـ كم الساعة الان ؟

أحرج المحافظ كما لو كان في قفص المتهمين بمحكمة يواجه سؤالاً لم

يتوقعه . كان المحامي ينظر اليه نظرة متعبة وتعيسة أصبحت احدىٰ سماته ، نظرة رجل لم يحمل شيئا من ماضيه ليواجه به حاضرة المأساوي .

ـ الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرون .

ـ كنت أظنها أكثر من ذلك .

فرد المحافظ محتدا :

ـ إنها حسب توقيتي .

حقا لقد كانت ساعته وكان ذلك توقيته . فمنذ تلك اللحظة لم يخامره ادنى شك في احتمال وجود خطأ في هذا التوقيت لانه ببساطة هو الذي اخترعه .

(٢)

لم يستطع لوي شافيل قط أن يجد تفسيراً لكره المحافظ له . لم يكن يصعب عليه أن يميز الكراهية في نظراته ، فقد اعتاد أن يواجه مثل تلك النظرات في المحاكم على وجوه الشهود والسجناء . أما الان ، وقد اصبح هو واحداً من السجناء ، فكان من المستحيل عليه أن يكيف نفسه مع الواقع الجديد ، كما ان محاولاته التجريبية المترددة لاستمالة زملائه كان مصيرها الفشل دوماً لأنه كان يرىٰ فيهم سجناء طبيعيين سيسجنون عاجلاً أو آجلاً بسبب ارتكاب سرقة أو عملية احتيال أو جريمة جنسية ، أما هو فقد أصبح سجيناً عن طريق الخطأ . وفي مثل هذه الظروف فقد كان من المنطقي ان يكون المحافظ صديقه ، إذ كان

يعتقد أن المحافظ ايضا لم يكن سجيناً طبيعياً على الرغم من انه كان يتذكر جيداً تورط احد المحافظين في قضية اختلاس في احدى المحافظات . وقد حاول عدة مرات التقرب من المحافظ ، الا انه كان يصاب بالدهشة والحيرة بسبب كره المحافظ له . اما الاخرون فكانوا يتصرفون إزاءه بلطف يصغون اليه ويستجيبون له عندما يتحدث اليهم . أما مبادراتهم الى التحدث اليه فلم تكن تتجاوز القاء التحية عليه . وبعد فترة بدأ يشعر بالانزعاج لان الاخرين كانوا يتمنون له اوقاتاً سعيدة على الرغم من انه كان في السجن «طبت صباحاً» و«طبت مساءً» ، كانوا يقولونها له دائماً وكأنهم يلقون عليه التحية وهو سائر في الشارع في طريقة الى المحاكم . ولكنهم في الواقع كانوا جميعاً محتجزين داخل سجن كبير تحت سقف كونكريتي بطول ٣٥ قدماً وعرض ١٧ قدماً .

منذ أكثر من اسبوع والمحامي يحاول جهده ان يتصرف تصرفاً طبيعيا شأنه شأن بقية السجناء وقد نجح حتى في فرض نفسه في جلسات لعب الورق التي كانت تجري بينهم على الرغم من انه كان يجد صعوبة في تقبل الاشياء التي تجري عليها المراهنات . لم يكن يجد ضيراً في أن يخسر بعض المال وكان يحمل بعض النقود الورقية معه بعد أن سمحت له ادارة السجن بادخالها ولكن لم يكن في مستطاع زملائه مجاراته في اللعب لافتقارهم الى المال ، كما ان الاشياء التي كانوا يراهنون عليها بدلاً من النقود لم تكن تناسبه . فقد كانوا يقامرون ، على سبيل المثال على زوج من الجوارب وكان الخاسر ينتعل حذاءه بقدمين عاريتين ويتحين الفرص حتى يأتي دوره لينتقم

من صاحبه . أما المحامي فقد كان يخشى كثيرا أن يفقد أي شيء قد يؤدي الى الانتقاص من قدره بوصفه رجلاً ذا أصل كريم ويتمتع بالجاه والمال . فلم يكن أمامه ازاء هذا الوضع سوى ان يتخلى عن فكرة اللعب نهائياً على الرغم من ان الحظ حالفه وربح صداراً فُقدت أزراره من أحد السجناء ولكنه أعاده اليه في مساء اليوم نفسه. لم يرُق تصرفه هذا بقية السجناء الذين اخذوا ينظرون اليه على انه لا يتحلىٰ بروح رياضية على الرغم من انهم لم يقولوا شيئاً لإدانة تصرفه علناً . ولكن هل تتوقع غير هذا من محامٍ ؟

كان السجن اكثر ازدحاماً من أية مدينة وقد ادرك شافيل بمرور الايام كيف يمكن أن يشعر الانسان بالغربة في المدينة الى حد لايطاق . وكان يعزي النفس بالقول أنه مع مرور كل يوم تكون الحرب قد اقتربت من نهايتها اكثر فاكثر ، اذ لابد أن ينتصر شخص ما في وقت ما ولم يكن يهتم بمن سيكون المنتصر بقدر ماكان يهتم بانتهاء الحرب . لقد كان رهينة في سجنه ولم يكن يخطر بباله ان الرهائن قد يقتلون أحيانا . إهتز قليلاً لموت زميليه في السجن . كان يشعر بالضياع والاهمال بحيث لم يخطر بباله احتمال اختياره من بين نزلاء السجن المزدحم . فالكثرة في العدد كانت تعني عنده الامان بقدر ما كانت تعني الوحدة .

ذات مرة تملكته رغبة قوية في ان يتذكر أنه كان يحيا حياة مختلفة في السابق وان يقنع نفسه بانه سيعود اليها في يوم من الايام وكان يرغب في التحدث عنها الى الاخرين . وحتى يحقق رغبته غيّر مكانه في السجن وأصبح قريباً من أحد السجناء . وكان هذا يعمل

موظفاً بسيطاً سابقاً وكان شاباً نحيفاً صامتاً يكنيه أصحابه باسم جانفييه لسبب غير معروف . هل كانت التسمية الغريبة هذه من بنات افكار أحد زملائه في السجن رأى فيه شباباً غير ناضج وكأن البرد والصقيع قد عطلا نموه ؟

ـ جانفييه ، هل سبق أن سافرت ، أقصد في فرنسا ؟

سأله المحامي كأنه يريد أن يؤكد ان من طبع المحامين حتى عندما يريدون عقد صلة انسانية أن يضعوها بصيغة سؤال كما لو كانوا يخاطبون شاهداً في المحكمة .

فأجابه جانفييه :

ـ لم ابتعد عن پاريس قط .

ثم استدرك كأنه تذكر شيئاً :

ـ فونتانبلو ، لقد ذهبت اليها مرة واحدة في الصيف .

ـ اذن أنت لاتعرف بريناك . انها مدينة صغيرة على طريق خط السكة الرئيس الصاعد من المحطة الغربية .

فأجابه الشاب متجهماً كأن أحداً يتهمه بارتكاب خطأ ما :

ـ لم أسمع بها قط .

وأتبع جوابه بسعال طويل جاف محدثاً صوتاً أشبه بصوت تقليب حبات البزاليا في قدر .

ـ اذن أنت لاتعرف قريتي المسماة سان جان دي بريناك ؟

انها تقع في الضواحي الشرقية للمدينة وعلى بعد ميلين عنها وانا أملك داراً ريفية في تلك القرية .

ـ كنت أظنك من أهالي پاريس .

- أنا أعمل في باريس ، ولكن عندما أتقاعد من العمل سوف أذهب الى القرية حيث يوجد البيت الريفي الذي تركه لي أبي وكان هو بدوره قد ورثه عن أبيه .

فسأله جانڤييه بشيء من الفضول :

- وماذا كان يعمل أبوك ؟

- كان محامياً .

- وأبوه ؟

- كان محامياً ايضاً .

- اظن ان مهنة المحاماة تناسب بعض الناس ولكنها لاتعجبني كثيراً .

فقال شاڤيل مسترسلاً في الكلام :

- لو كانت عندك قطعة من الورق لرسمت لك مخططاً للبيت والحديقة .

- ليست لدي أية ورقة ، وعلى أية حال ليست هناك أية ضرورة لذلك ، فالبيت بيتك وليس بيتي .

وما ان اكمل جانڤييه جملته حتىٰ أخذ يسعل مرة اخرى ضاغطاً بيديه على ركبتيه . كان كمن يريد انهاء مقابلة مع زائر لايستطيع القيام بشيء من أجله ، لاشيء على الاطلاق .

ابتعد عنه شاڤيل وذهب الى پيير وسأله :

- هلا اخبرتني بالوقت ؟

- انها الثانية عشرة الا خمس دقائق .

فدمدم المحافظ بخبث :

ـ ماتزال بطيئة .
قال شافيل موجهاً كلامه الى پيير :
ـ أظن ان مهنتك تتيح لك فرصة زيارة انحاء العالم ؟
كان يتحدث برقة ووداعة كمن يستجوب شاهداً يحاول كشف زيف ادعائه .
فأجابه پيير :
ـ نعم ولا .
ـ هل تعرف ، بالمناسبة ، محطة باسم بريناك ؟ انها على بعد ساعة بالقطار من المحطة الغربية لپاريس .
ـ لم أسافر في ذلك الاتجاه ابداً ، فانا انطلق دائماً من المحطة الشمالية .
ـ آه ، نعم . اذن أنت لاتعرف قرية سان جان ....
ولكنه تخلىٰ عن محاولته يائساً وجلس مرة اخرىٰ مسنداً ظهره الى الجدار الكونكريتي للسجن بعيداً عن أي شخص آخر .
في تلك الليلة سمعت اصوات اطلاق النار مرة ثالثة : رشقة قصيرة من رشاشة وبعض اطلاقات منفردة وتبع ذلك صوت يشبه صوت انفجار قنبلة . بقي السجناء ممددين في أماكنهم على الارض دون ان يعلق أحدهم بشيء ، لم ينم أحد منهم ، كانوا جميعا ينتظرون حدوث شيء ما . لم يكن في وسع أحد ان يقول اذا كانوا يشعرون بالخوف من خطر محدق بهم او انهم كانوا يشعرون بالاغتباط مثل اناس إلتفوا حول سرير شخص مريض ليصغوا الى علامات الصحة تعود الى جسده الساكن . كان شافيل ساكناً

كالاخرين وليس خائفا ، فقد كان عمق المكان يعطيه شعورا بالامان كأن احداً لايستطيع اكتشاف مخبئه . اما المحافظ فقد غطى ساعته بيده وهو يحاول عبثاً إسكات دقاتها المستمرة : تيك تاك تيك .

(٣)

كانت الساعة تشير الى الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي (حسب توقيت الساعة ذات المنبه) عندما دخل الزنزانة ضابط شاب . منذ اسابيع لم يقابلوا احداً من الضباط . أما هذا فقد كان شابا بدت عليه قلة الخبرة حتى في شكل شاربه الذي كان جانبه الايسر قد قص اكثر من الجانب الاخر . بدا محرجاً كأنه تلميذ يظهر أول مرة على المسرح لتسلم جائزة . خاطب السجناء بلهجة حادة وبكلمات متقطعة محاولاً الظهور بمظهر القوة خلافاً لحقيقته فقال :

ـ وقعت عدة حوادث قتل في المدينة في الليلة الماضية . فقد اغتيل مساعد الحاكم العسكري وعريف إضافة الى فتاة فرنسية كانت راكبة دراجة هوائية . لايهمنا مقتل الفتاة الفرنسية فالفرنسيون مسموح لهم بأن يقتلوا الفرنسيات .

كان واضحا انه قد أعد خطبته هذه منذ فترة وبعد تفكير طويل فيما سيقوله للسجناء ، ولكنه بالغ في التهكم كثيراً فبدا كأنه ممثل هاوٍ فتحول المشهد كله الى لغز تمثيلي مزيف . إستمر الضابط قائلاً :

ـ لأشك في انكم تعرفون سبب وجودكم هنا ، انكم تعيشون في راحة

تامة وتتسلمون أرزاقا جيدة بينما رجالنا يعملون ويقاتلون . طيب عليكم الان أن تدفعوا قائمة الفندق .لا تلومونا ولكن لوموا القتلة من أبناء جلدتكم . لقد أصدرت الاوامر باعدام رجل واحد من بين كل عشرة رجال في هذا المعتقل . كم عددكم ؟

وصاح بحدة :

ـ تعداد !

فأطاعه السجناء بتجهم .

ـ ... ثمانية وعشرون ، تسعة وعشرون ، ثلاثون .

كانوا واثقين بأنه يعرف الرقم جيداً دون الحاجة الى اجراء تعداد ولكنه فعل ذلك لانه كان سطراً من سطور اللغز التمثيلي الذي اعده ، لذلك لم يقدر على التضحية به . وبعد اجراء التعداد أضاف :

ـ حصتكم اذن هي ثلاثة رجال . لايهمنا أي ثلاثة . يمكنكم ان تختاروا بانفسكم . مراسيم الدفن تجري غداً في الساعة السابعة صباحاً .

الى هنا انتهى اللغز التمثيلي . تناهىٰ صوت خطواته الى اسماعهم وهو يبتعد . ساءل شافيل نفسه : أي مقطع من التمثيلية كان هذا الذي مثله الضابط ـ «الليل» ، «الفتاة» ، «على انفراد» ، او ربما «ثلاثون» ، ولكن فعلاً كان هناك عالم كامل إسمه «رهينة» .

ظل الصمت يخيم عليهم فترة طويلة الى ان اخترقه صوت أحدهم وهو رجل من أهالي الالزاس يدعىٰ كروغ فسأل :

ـ حسناً ، هل يجب ان نتطوع ؟

فرد عليه رجل كبير السن نحيف بنظارات أنفية صغيرة وكان

يعمل موظفاً من قبل وقال :

- هراء ، لا أحد يتطوع . يجب اجراء القرعة الا اذا كنتم تقصدون أن يكون الاختيار حسب العمر ، الاكبر سناً يذهب اولاً .

فقال أحدهم :

- كلا ، كلا ، هذا ظلم .

- بل انها سنة الحياة .

- ليس بالضرورة ، لقد ماتت إبنتي وهي في الخامسة من عمرها ...

فتدخل المحافظ وقال بحدة :

- يجب اجراء القرعة فهي الطريقة العادلة الوحيدة .

وجلس ويداه ما تزالان تضغطان على بطنه وهو يحاول اخفاء الساعة ولكن كل من في الزنزانة كان يسمع دقاتها الفظة ثم اضاف :

- ويجب أن تجري على العزاب فقط . اما المتزوجون فلديهم مسؤوليات ...

وهنا قال پيير :

- هاها ، نستطيع أن نرى قصدك الحقيقي . لماذا يجب استثناء المتزوجين ؟ فقد أدوا ادوارهم . من المؤكد أنك متزوج .

فأجابه المحافظ :

- فقدت زوجتي ، ولم أعد متزوجاً الان . وماذا عنك ؟

فقال پيير :

- انا متزوج .

وشرع المحافظ في فتح سلسلة ساعته . فعندما تبين له ان مالك

الساعة الاخرى في السجن في أمان لكونه من المتزوجين تأكد اعتقاده أنه سيكون الضحية القادمة بوصفه يمتلك ساعة . أجال ببصره في الوجوه واختار شاڤيل لأنه ربما كان الرجل الوحيد الذي يرتدي صداراً مما يتيح له ربط سلسلة الساعة به وقال له :

ـ ياسيد شاڤيل ، اريدك ان تحافظ على هذه الساعة في حالة ....

فقاطعه شاڤيل قائلاً :

ـ من الافضل أن تختار شخصاً آخر لانني أعزب أيضا .

فقال الموظف كبير السن مرة اخرى :

ـ أنا متزوج ومن حقي ان أتكلم . اننا نسير في طريق خاطىء . يجب اجراء القرعة على الجميع ، فهذه لن تكون القرعة الاخيرة التي سنجريها هنا . تصوروا كيف سيكون حال السجن اذا ما بقيت فيه طبقة ذات امتياز تتألف من اولئك الذين سيبقون حتى النهاية . لا شك في أنكم ستكرهوننا وسيكون بقاؤنا على حساب مخاوفكم ...

وقال پيير :

ـ له الحق في ذلك .

أما المحافظ فأعاد ربط ساعته وقال :

ـ فليكن كما ترون . ولكن اذا كانت الضرائب تفرض بمثل هذا .....

ولم يكمل كلامه وبدت عليه علامات اليأس .

وسأل كروغ :

ـ كيف نجري القرعة ؟

فأجابه شاڤيل :

ـ أسرع طريقة هي أن نضع اوراقا مؤشرة داخل حذاء ...

وقال كروغ باحتقار :

ـ ولماذا السرعة ؟ ستكون هذه آخر مقامرة لبعضنا ويجب ان نستمتع بها . أنا اقترح قطعة نقد معدنية .

ورد الموظف :

ـ لافائدة من ذلك اذ لايمكن ضمان فرص متكافئة باستعمال قطعة النقود .

وقال المحافظ :

ـ الطريقة الوحيدة هي القرعة .

وقام الموظف باعداد اوراق القرعة مضحياً باحدى الرسائل المرسلة اليه من عائلته . قرأها بسرعة آخر مرة ثم قسمها الى ثلاثين قصاصة ووضع اشارة × على ثلاث منها وطواها واحدة واحدة ثم قال :

ـ حذاء كروغ هو أكبر الاحذية .

وقاموا جميعاً بخلط الاوراق على الارض ثم وضعوها داخل الحذاء .

فقال المحافظ :

ـ سنقوم بالسحب حسب حروف/ الالف باء .

ـ واجابه شافيل : ولكن نبدأ بالحرف الاخير .

لقد تزعزع شعوره بالطمأنينة . كان بحاجة ماسة الى أن يشرب شيئا ما ، وعض قطعة جلد يابسة على شفتيه .

فأجابه سائق الشاحنة :

ـ كما تشاء . هل هناك أحد يبدأ اسمه بحرف قبل ڤوازان ؟ إذن سأسحب أنا الورقة الاولى .

وأدخل يده في الحذاء وأخذ يقلب قصاصات الورق كأنه يبحث عن قصاصة معينة تماما . سحب واحدة وفتحها ونظر اليها بدهشة وقال :

- إنها مؤشرة .

جلس على الارض وتناول سيكارة ووضعها في فمه ولكن نسي أن يشعلها . انتاب شافيل سرور عظيم ولكنه مخجل . ظن أنه نجا من الموت . فهناك تسعة وعشرون رجلاً وورقتان مؤشرتان فقط . لقد ازدادت احتمالات نجاته فجأة من واحد في عشرة الى واحد في أربعة عشر . سحب بائع الخضروات الورقة الثانية واشار بلا اكتراث الى انه نجا من الموت لان الورقة كانت بيضاء ولكن لم تظهر عليه أية علامة من علامات السرور . فبعد أن سحب سائق الشاحنة احدى الاوراق المؤشرة في بداية القرعة كان اظهار أية علامة فرح سيبدو كأنه نكاية بالرجل المحكوم عليه . مرة اخرى بسط قلق مبهم سلطانه على صدر شافيل . لم يكن شعوراً بالخوف ولكنه كان أشبه بشعور بالاكتئاب . بدأ بالتثاؤب عندما سحب الرجل السادس ورقة بيضاء ولما سحب الرجل العاشر - وهو الذي كانوا يسمونه جانفييه - ورقته البيضاء أيضاً خيم على ذهن شافيل شعور بالضيم ، إذ عادت الاحتمالات كما كانت عليها في بداية القرعة . كان لكل واحد منهم اسلوبه في سحب ورقته ، فبعضهم يسحب أول قصاصة تلامس أصابعه والاخر يرمي الورقة التي يمسك بها أولاً ويضعها في مكان آخر داخل الحذاء ثم يختار ورقة اخرى وكأنه يشك في إن القدر يحاول فرض قصاصة معينة عليه . كان الوقت يمضي ببطء قاتل

وكان الرجل المدعو ڤوازان جالساً وظهره الى الحائط دون ان يكترث لما يدور حوله وفي فمه سيكارة لما يشعلها بعد . كانت الاحتمالات في غير صالح شاڤيل قد ازدادت الى واحد في ثمانية عندما سحب الموظف كبير السن وكان يدعىٰ لونوتر الورقة المؤشرة الثانية.سعل الرجل قليلاً وثبت نظارته كأنه يحاول التأكد أنه لم يحصل خطأ في الموضوع ثم قال وهو يبتسم ابتسامة غير واثقة :

ـ هل لي ان أنضم اليك ياسيد ڤوازان ؟

لم يفرح شاڤيل هذه المرة على الرغم من ان احتمالات نجاته زادت مرة أخرى بالنسبة الكبيرة جداً البالغة واحداً الى خمسة عشر . فقد روعته شجاعة الناس العاديين وأصبح يتمنىٰ ان ينتهي كل شيء بأسرع ما يمكن . بدا الامر كأنه لعبة ورق استمرت اكثر مما ينبغي وكان يتمنىٰ أن ياتي أحد بحركة ما ويحطم المائدة . جلس لونوتر على الارض الى جانب ڤوازان وأسند ظهره الى الحائط واخذ يقلب في قصاصة الورق التي سحبها تواً . كانت قطعة من رسالة مرسلة اليه .

سأله ڤوازان :

ـ هل كانت الرسالة من زوجتك ؟

ـ كلا من إبنتي ، إسمح لي .

ـ ثم قام الى لفة فراشه وأخرج دفتر الرسائل وجلس الى جانب ڤوازان وبدأ يكتب رسالة بعناية كبيرة ودون استعجال وبخط واضح ورفيع . عادت الاحتمالات الى واحد في عشرة .

منذ تلك اللحظة بدأت احتمالات خلاص شاڤيل تتناقص بسرعة

رهيبة . واحد في تسعة ، واحد في ثمانية . كانت تبدو كأنها اصبع موجه اليه ، أخذ الباقون يسحبون الاوراق المتبقية بسرعة ودون اكتراث . كانوا يبدون لشافيل كأنهم حصلوا على معلومات خفية تؤكد لهم أن الورقة المؤشرة الاخيرة ستكون من حصة شافيل .

عندما جاء دوره كانت ماتزال هناك ثلاث قصاصات . كان يرى في ذلك ظلماً فاحشاً لان الخيارات المتروكة له تناقصت الى ذلك الحد . مد يده داخل الحذاء وأمسك باحدى القصاصات ولكن قبل أن يسحبها إنتابه شعور أن تلك الورقة قد فرضت عليه وانها هي الورقة المؤشرة فرماها وأخذ غيرها .

فقال له أحد الرجلين الباقيين :

ـ تحايلت ونظرت الى الورقة ، أيها المحامي .

هدأ الرجل الاخر من روعه وقال له :

ـ كلا لم ينظر ، فقد سحب الورقة المؤشرة الان .

(٤)

قال لونوتر وكأنه يدعو شافيل الى الجلوس في أفضل مكان في حفلة عشاء عامة :

ـ تفضل هنا ياسيد شافيل وأجلس معنا .

فأجاب شافيل بعد أن رمى ورقته على الارض :

ـ كلا ، كلا ، انا لم اوافق على فكرة القرعة قط . لايمكنكم أن

تدفعوني الى الموت من أجلكم ....

كانوا ينظرون اليه باستغراب ولكن من غير مشاعر عدائية . فقد كان من الاشراف ولذلك لم يقيسوه بمقاييسهم نفسها فهو ينتمي الى طبقة ليست مسؤولة أمام أحد . في البداية لم يفكروا في أن تصرفاته يمكن أن تكون ناجمة عن جبن .

قال له كروغ :

ـ اجلس وخذ قسطاً من الراحة . لم يعد هناك مايستحق الاهتمام .

فأجابه شافيل :

ـ لايمكن ، هذا هراء . لايمكن أن يوافق الالمان على اعدامي . انا من اصحاب الاملاك .

قال لونوتر :

ـ لاتنفعل الان ياسيد شافيل ، فحتى لو نجوت في هذه المرة لن تنجو في المرات القادمة ...

وردد شافيل :

ـ لايمكنكم اجباري .

وأجابه كروغ :

ـ لسنا نحن الذين سنجبرك .

رفع شافيل ورقته الى الأعلى بينما نظر الاخرون اليه بفضول واشفاق .

ـ اسمعوا ، سوف أعطي مائة الف فرنك لكل من يوافق على أخذ هذه الورقة .

احتدم غيظاً ، وبدا كما لو أن حالة من الهدوء الخفي في داخله

قد وقفت جانباً وسمعت مقترحه الغريب وراقبت جسده وهو يبدي مظاهر الخوف والتوسل المخزية . كان الامر كما لو أن شافيل الهادىء قد همس بمتعة لاتخلو من سخرية :

«إنه استعراض عظيم ، حاول أن تتظاهر اكثر ، كان يجب أن تكون ممثلاً ايها الرجل العجوز . من يعرف ، لعلها فرصتك» . تنقل بين السجناء واحداً واحداً بخطوات قصيرة سريعة ملوحاً بالورقة في وجه كل منهم وكأنه يدير مزايدة علنية وقال مناشداً :

ـ مائة الف فرنك .

كانوا ينظرون اليه بعطف لايخلو من احساس بالصدمة . كان الثري الوحيد بينهم وكانت هذه حالة فريدة من نوعها . لم يكن لديهم مايمكنهم أن يقارنوا به هذا الوضع وقد افترضوا أن مثل هذا التصرف هو من خصائص أبناء هذه الطبقة . كانت تصرفاته في نظرهم انموذجاً لتصرفات أبناء طبقته وتلخيصاً لها شأنه في ذلك شأن مسافر ينزل من الباخرة في بلد أجنبي ويجلس لتناول الطعام ، فهو يقدم صورة لشخصية الشعب الذي ينتمي اليه في نظر رجل أعمال حاذق يجلس معه مصادفة على المائدة نفسها .

كرر عرضه مرة اخرى كأنه يتوسل اليهم :

ـ مائة الف فرنك .

ومرة اخرى همس شافيل الهادىء في داخله : «بدأت تزعج الناس بتصرفاتك . لماذا المساومة ؟ لماذا لاتعرض عليهم كل ماعندك» .

قال لونوتر :

ـ هدئ من روعك ياسيد شافيل . فكر لحظة واحدة فقط ، ليس هناك من يرغب في التخلي عن حياته مقابل مال لن يتمتع به قط .

فأجابه شافيل وقد بح صوته من جراء اليأس :

ـ سوف أعطي كل ماأملكه ، المال ، الارض ، كل شيء حتى بيتي الريفي في سان جان دي بريناك .

ورد عليه ڤوازان وقد نفد صبره :

ـ لا احد منا يريد أن يموت ياسيد شافيل .

وكرر لونوتر :

ـ هدىء من روعك ياسيد شافيل .

وبدا كلامه الموجه لشافيل المتهستر كأنه موعظة من بَرّ في عين نفسه . أما شافيل فقد خذله صوته وهو يقول :

ـ كل شيء .

أخذوا يفقدون صبرهم معه . التسامح قائم على الصبر والصبر مسألة أعصاب هادئة ، أما هنا فالجميع كانت أعصابهم متوترة .

وقال كروغ موبخاً :

ـ اجلس واغلق فمك .

أما لونوتر فظل محتفظاً بلطفه وأفسح مجالاً بجانبه لشافيل وأخذ ينظف الارض بكفه .

مرة أخرى همس شافيل الهادىء من داخله : «انتهى كل شيء . لم تكن بالمستوى المطلوب . عليك أن تفكر في شيء آخر» . وهنا جاءه صوت يقول :

ـ أعطني تفاصيل اكثر عن عرضك ، فقد اشتري .

وكان صاحب الصوت هو جانڤييه .

(٥)

لم يكن شاڤيل في الحقيقة يتوقع أن يوافق أحد على عرضه . كان مبعث سلوكه الهستريا وليس الأمل . والان كان لابد أن يمضي وقت طويل قبل أن يدرك ان الذي وافق على عرضه كان جاداً ولم يكن يستهزىء به . فردد :

ـ كل ماأملكه .

انقشعت قشرة الهستريا تاركة شعوراً بالخزي .

قال لونوتر لجانڤييه :

ـ لاتستهزىء به :

ـ انا لااستهزىء ، لقد قلت إنني اقبل عرضه .

خيم صمت طويل كما لو أن أحداً لم يكن يعرف ما هي الخطوة التالية . كيف يمكن لشخص أن يتنازل عن جميع مايملك . لقد كانوا يراقبونه كما لو انهم كانوا يتوقعون أن يقوم بتفريغ مافي جيوبه . فقال شاڤيل :

ـ وهل ستحل محلي ؟

ـ نعم سأحل محلك .

وقال كروغ وقد نفد صبره :

ـ مافائدة أمواله اذن لك ؟

ـ بامكاني ان أوصي بها . أليس كذلك ؟

مد ڤوازان يده الى فمه فجأة واخذ السيكارة التي لم يشعلها وسحقها على الارض وقال متسائلاً :

ـ لاتعجبني كل هذه الفوضى . لِمَ لا ندع الامور تسير في مجراها . أنا ولونوتر لانستطيع شراء حياتنا ، فلماذا يجب أن يسمح له بذلك ؟

فأجابه لونوتر :

ـ هدىء من روعك ياسيد ڤوازان .

وقال ڤوازان :

ـ ليس هذا من العدل في شيْ .

كان واضحاً ان معظم الموجودين في الزنزانة كانوا يشاطرون ڤوازان مشاعره ، لقد صبروا عن شاڤيل ونوبة الهستريا التي اصابته لأنه سيواجه الموت بعد فترة وليس في ذلك مايضحك ، كما انهم لم يكونوا يتوقعون من رجل ذي أصل رفيع أن يتصرف كالاخرين ، فهذه الطبقة هي في الواقع رقيقة بعض الشيء عندما تتحرىٰ حقيقتها ولكن الذي كان يحدث امام أعينهم حينذاك كان أمراً مختلفاً وكما عبر عنه ڤوازان لم يكن من العدل في شيء . كان لونوتر الشخص الوحيد الذي بقي محافظاً على هدوئه فقد قضى معظم حياته في التجارة وقد صادف أن جرت أمامه اكثر من مرة صفقات تجارية كان الطرف الأفضل هو الخاسر فيها .

وقاطعهم جانفييه قائلاً :

ـ عدالة ؟ وما الذي يتنافىٰ والعدالة عندما تتركوني أفعل ماأشاء . كلكم يريد أن يكون ثرياً لو أتيحت له الفرصة ولكن ليست لديكم الجرأة . لقد رأيت فرصتي سنحت فاغتنمتها . انها العدالة دون

شك . فسوف أموت ثرياً وليمت غيظاً كل من يظن أن ذلك يتعارض والعدالة .

وأخذ يسعل ثانية محدثاً صوتاً يشبه صوت دحرجة حبات البزاليا في قدر . لقد اسكت كل معارضة وأخذ يتصرف كأنه يمتلك نصف العالم . وقد بدأت المعايير تتحول بسرعة لدى الاخرين . فالرجل الذي كان ثرياً حتى لحظات قليلة أصبح واحداً منهم ، وتاه جانفييه في ضباب الثروة وعالمها الغريب وأمر شافيل قائلاً :

ـ تعال اجلس هنا .

أطاعه شافيل وتحرك ببطء كأنه يشعر بوطأة العار الذي جلبه عليه نجاحه .

قال له جانفييه :

ـ والان بما انك محام عليك ترتيب الامور بالصورة الصحيحة . كم هو المبلغ الموجود ؟

ـ ثلاثمائة الف فرنك تقريباً ، لااستطيع أن أخبرك بالرقم الصحيح .

ـ وماذا بشأن العقار الذي كنت تتحدث عنه ؟ سان جان .

ـ ستة فدانات اضافة الى بيت .

ـ وليس مرهوناً ، أليس كذلك ؟

ـ هذا صحيح .

ـ وأين تقيم في باريس ؟ هل لديك بيت هناك أيضاً ؟

ـ أقيم في شقة ولكنها لاتعود لي .

ـ وماذا بشأن الاثاث ؟

- لايوجد شيء سوى الكتب .
- اجلس واكتب - ماذا يسمونه ؟ سند هبة .
- حسناً ولكني احتاج الى ورقة .
وهنا تدخل لونوتر وقال :
- يمكنك أن تستعمل دفتري .
وجلس شافيل الى جانب جانفييه وبدأ يكتب :
«أنا جان لوي شافيل المحامي والساكن في باريس شارع ميرومنيل رقم ١١٩ وفي سان جان دي بريناك ... جميع الاسهم والسندات والنقود الموجودة في حسابي لدى .... وجميع الاثاث ... والموجودات المتنقلة والعقار الموجود في سان جان دي بريناك ....» .
ثم قال :
- لابد من توقيع شاهدين على السند .
وتقدم لونوتر حالاً وعرض نفسه شاهداً كأن ذلك عادة متأصلة فيه وكما لو انه سمع جرس رئيسه في المكتب وتقدم اليه من غرفة مجاورة .
وقال له جانفييه بوقاحة :
- انك لاتنفع ، اريد أن يكون شهودي من الاحياء .
ووجه شافيل كلامه الى المحافظ وقال بتواضع كبير كأنه موظف يؤدي واجبه :
- هل يمكن أن تقوم انت بالمهمة ؟
فأجابه المحافظ :
انها وثيقة غريبة حقاً ، لست متاكداً من ان رجلاً في مركزي

ينبغي أن يوقع ...

قاطعه پيير قائلاً :

ـ إذن سافعل انا ..

ووقع فوراً تحت اسم شاڤيل .

فقال المحافظ :

ـ من الافضَل ان يكون الشاهد من الاشخاص الموثوق بهم ، فهذا الرجل لايتوانىٰ عن قول أي شيء مقابل كأس .

ووضع توقيعه في الفسحة الصغيرة الباقية فوق توقيع پيير . وعندما انحنىٰ لكي يوقع تناهت الى اسماعهم دقات الساعة الكبيرة الموجودة في جيبه وهي تشير الى اقتراب موعد حلول الظلام . ثم قال جانڤييه :

ـ والان جاء دور الوصية ، اكتب انني اتنازل عن كل ماأملك لمنفعة امي واختي وبحصص متساوية .

فأُجابه شاڤيل :

ـ هذا سهل ، لانحتاج إلا الى بضعة أسطر .

فقال جانڤييه :

ـ كلا ، كلا ، اكتب كل شيء مرة ثانية وبالتفصيل ... الاسهم والسندات وحسابك في المصرف والعقار ... فسيحتجن الى مستند يبرزنه للجيران حتى يثبتن لهم أي صنف من الرجال كنت .

وعندما إنتهى شاڤيل من كتابة كل شيء وقع كروغ وبائع الخضروات على الورقة الثانية . وخاطب جانڤييه المحافظ قائلاً :

ـ لتبق المستندات لديك فقد يسمح الالمان لك بارسالها بعد أن ينتهوا

من أمري واذا لم يوافقوا على ارسالها فيجب أن تحافظ عليها حتى نهاية الحرب .

سعل مرة اخرى واسند ظهره الى الحائط وكان الاعياء بادياً عليه ثم قال :

ـ اليوم اصبحت ثرياً ، كنت واثقاً بانني ساصبح ثرياً يوماً ما .

إنحسر ضوء الشمس عن داخل الزنزانه بالتدريج وانتقل من هذا الجانب الى الجانب الاخر وكأنه سجادة تطوىٰ . غطت عتمة الغروب الجهة التي كان جانقييه جالساً فيها فاختفىٰ بينما كانت بقية من الضوء في الجانب الذي جلس فيه الموظف وڤوازان فاستمر الاول في الكتابة في الضوء المتناقص . خيم سكون بغيض . فقد هدأت الهستريا ولم يبق هناك مايقال . كان الليل يقترب على ما تشير الساعة اليدوية والساعة ذات المنبه بينما يخترق سعال جانقييه السكون الرابض من وقت الى آخر . وعندما حل الظلام تماماً قال جانقييه :

ـ شاڤيل !

كان يتكلم كأنه يوجه كلامه الى خادمه واستطرد :

ـ شاڤيل ، حدثني عن بيتي !

ـ يقع على بعد ميلين من القرية .

ـ وكم هو عدد الغرف ؟

ـ هناك غرفة المعيشة والمكتبة وقاعة الاستقبال الى جانب خمس غرف للنوم والمكتب الذي استقبل فيه زبائني ، ومن المؤكد الحمام والمطبخ ... وغرفة الخدم .

ـ حدثني عن المطبخ .
ـ لا اعرف الكثير عن المطبخ ولكنه مطبخ كبير وارضيته مغطاة بالحجر . كانت مدبرة المنزل راضية عنه دائماً .
ـ وأين هي الآن ؟
ـ ليس هناك أحد في البيت الآن ، فقد اقفلته بعد نشوب الحرب . لقد كنت محظوظاً فلم يصبه الالمان ولا مرة واحدة .
ـ وماذا عن الحديقة ؟
ـ هناك شرفة صغيرة تطل على المَرْج والارض منحدرة وتستطيع أن ترى امامك حتى النهر وماوراءه سان جان ...
ـ هل كنت تزرع الكثير من الخضروات ؟
ـ نعم وهناك أشجار الفواكه ايضاً كالتفاح والاجاص والجوز ويوجد هناك بيت زجاجي .

واستمر في الحديث مخاطباً نفسه بقدر ما كان يخاطب جانفييه .

ـ عندما تدخل من مدخل الحديقة الرئيس لن تستطيع أن ترى البيت من هناك ، يوجد باب خشبي وممر طويل منحن مغطى بالحصباء وعلى جانبيه الاشجار والشجيرات . يصل الممر بعد الانحناء مباشرة الى الشرفة وينقسم الى قسمين : القسم الايسر يؤدي الى مسكن الخدم والقسم الايمن يؤدي الى مدخل البيت . كانت والدتي تراقب من داخل البيت تحسباً للزوار الذين لم ترغب في استقبالهم ولم يكن في وسع أحد أن يزورنا من غير أن تراه وكان جدي أيضاً في شبابه يراقب بالطريقة نفسها التي كانت تراقب بها أمي ....

قاطعه جانفييه سائلاً :

ـ كم مضى على بناء البيت ؟

ـ مائتان وثلاثة وعشرون عاماً .

ـ انه قديم جداً . كنت افضل بيتاً حديثاً ، فوالدتي امرأة عجوز تعاني من الروماتزم .

كان الظلام قد لفهم بردائه منذ فترة وكانت بقايا ضياء النهار تتدحرج على سقف الزنزانة . ذهب الرجال الى النوم تلقائياً بعد أن هزوا وسائدهم . ونفضوها ثم احتضنوها كما يفعل الاطفال . يقول الفلاسفة إن الزمن الماضي والحاضر والمستقبل يعيش معاً في وقت واحد ولاشك في أن الظلام الدامس قد أعاد الحياة الى ذكريات الماضي لعدد من هؤلاء الرجال : شاحنة تسير على طول شارع مون پارناس ، فتاة تلم شفتيها وهي تستعد لقبلة من حبيبها والمجلس البلدي ينتخب محافظ المدينة . وهناك رجال ثلاثة كان المستقبل ماثلاً في أذهانهم وامام أعينهم دون أية شبهة وكأنه عملية ولادة طفل ـ خمسون خطوة على ممر رمادي ثم حائط مبني بالطابوق عليه آثار وحفر صغيرة تركتها طلقات نارية .

والان وبعد أن هدأت نوبة الهستريا التي ألمت بشافيل انتابه شعور بان ذلك الطريق القصير والسهل المؤدي الى الموت هو أفضل في النهاية من الطريق الطويل والمجهول الذي وضع عليه تواً اولى خطواته ولايعرف أين سيؤدي به .

الرجل العاشر

الجزء الثاني

(٦)

رجل يسمي نفسه جان لوي شارلوت يصعد الممر المنحني المؤدي الى البيت الواقع في سان جان دي بريناك .

كان كل شيء على حاله عدا تغييرات طفيفة ، وبدا له ان مرور الزمن قد ترك اثاره على البيت بسرعة تختلف عن سرعة مرور السنين في حياته هو . فقبل أربع سنوات أقفل الابواب بنفسه وفي حين توقف الزمن بالنسبة اليه عند تلك النقطة يبدو ان الايام هنا كانت تسير متسارعة . منذ بضع مئات من السنين وهذا البيت يكبر باستمرار ولكن بشكل يكاد يصعب ملاحظته . ولم يكن مرور الزمن يعني سوى تغيير لون الطابوق . لقد كان البيت محاطاً بالورود تماماً كسيدة طاعنة في السن وكانت صيانة الواجهة تجري في الوقت المناسب . اما الان فيبدو ان كل هذا المجهود قد ذهب هباء خلال السنوات الاربع المنصرمة ، فالطلاء تشقق ولم يجدد مرة واحدة .

لقد نمت الاعشاب بين قطع الحصى التي تغطي الممر المنحني وكانت هناك شجرة يبدو انها سقطت منذ فترة وقطع شخص ما أغصانها لحرقها في الموقد ، أما جذعها فقد كان مرمياً على الطريق مما يدل على عدم سير أية سيارة منذ عدة فصول في هذا الطريق باتجاه البيت . كل شيء كان مألوفاً للرجل الملتحي الذي كان يسير في

الانحناءات بحذر شديد وكأنه انسان غريب . لقد ولد في هذا المكان وفيه لعب العاب الطفولة عندما كان صغيراً حيث كان يلعب لعبة الاختباء بين الاحراش ليبحث عنه زملاؤه . وعندما كبر واصبح مراهقاً حمل معه عذاب حبه الاول وحنينه وحلاوته وهو يمشي في هذا الممر المحتمي بظل الاشجار . كان يتذكر كل شيء جيداً ، فبعد عشر ياردات من هنا يوجد باب صغير على الطريق المؤدي الى حديقة المطبخ وسط اشجار الغار الكثيفة الاوراق .

لم ير الباب في محله ، لقد اختفى ولكن أطرُه الباقية في مكانها اكدت صواب ذاكرته التي لم تخنه . حتى المسامير التي كانت تثبت المفصلة انتزعت من مكانها بعناية لتستعمل في مكان آخر لتسد حاجة اكثر الحاحاً . عندما وصل الى نهاية الممر أشاح بوجهه فلم يكن يريد أن يرى البيت بهذه السرعة . كان يشعر كأنه مجرم يعود الى مكان جريمته او محب يعود الى المكان الذي ودع فيه حبيبته . كان يلف ويدور وهو يتقدم نحو البيت ، لم يكن يجرؤ على أن يتقدم في خط مستقيم وان ينهي زيارته قبل أوانها ، لانه لو فعل لم يبق لديه مايفعله بعد ذلك والى الابد .

كان واضحاً ان البيت الزجاجي بقي مهملاً سنوات ولم يستعمله أحد على الرغم من انه يتذكر جيداً كيف طلب من البستاني العجوز الذي كان يعمل في البيت أن يحافظ على الحديقة ويزرعها باستمرار ويبيع غلتها بأي سعر كان في بريناك . ربما توفي الرجل العجوز ولم يبادر شخص آخر من القرية الى العمل محله او ربما لم يعد هناك بشرٌ في القرية . كانت الارض قرب البيت الزجاجي غير محروثة وقد داستها الاقدام . من هناك كان في وسعه أن يرى كنيسة الحي

القبيحة المنظر والمبنية بالطابوق الاحمر وكأنها علامة تعجب تشير الى السماء في نهاية جملة لم يستطع قراءتها.

واخيراً لاحظ ان شيئا ما قد زرع فعلاً في الحديقة . فقد لاحظ رقعة صغيرة من الارض نظفت من الحشائش وزرع فيها بعض البطاطا واللهانة والكرنب . كانت أشبه بالحديقة التي نخصصها للاطفال ليلعبوا فيها ويزرعوا مايشاؤون ، اذ لم تكن مساحتها تتجاوز كثيراً مساحة سجادة وماعدا ذلك كان القفر واليباب باديين في كل ارجاء الحديقة . تذكر جيداً كيف كانت هذه المساحات عامرة في الايام الخوالي بشجيرات الفراولة والزبيب وتوت الارض وتذكرٌ أيضاً رائحة الاعشاب الحلوة والمرة . اما السياج الحجري الذي يفصل حديقة البيت عن الحقول المجاورة فقد سقط جزء منه على شكل ثغرة وربما كان ذلك من عمل احد اللصوص الذي شق طريقة بهدم جزء من السياج ليصل الى الحديقة . كان جلياً ان كل ذلك قد حدث منذ زمن بعيد ، إذ نما حول الحجر المتراكم العديد من نبتات القراص . وقف طويلاً امام الثغرة وأخذ يجيل ببصره في منظر لم يكن حتى باستطاعة الزمن تغييره ، انه ذلك الانحدار الطويل المغطى بالحشائش والمتجه نحو اشجار الدردار والنهر . كان يعتقد من قبل أن بيت الانسان هو مايمتلكه ولكن الاشياء التي نمتلكها محكوم عليها بالتغيير . اما الان فقد ادرك ان الاشياء التي لم يمتلكها هي التي بقيت على حالها وترحب به الان . فهذا المنظر الطبيعي لم يكن ملكه ولم يكن بيتاً لأحد بعينه ، بل ببساطة كان وطناً .

لم يبق هناك ما يفعله سوى أن يعود أدراجه ويبتعد عن البيت .

ثم اذا عاد وابتعد عن المكان فهل هناك مايفعله سوى أن يرمي بنفسه في النهر حتى يغرق ؟ لم يبق لديه شيء من النقود ولم يمض على اطلاق سراحه من السجن اسبوع واحد حتىٰ أيقن أن ايجاد عمل له يكاد يكون مستحيلاً .

كانت الساعة السابعة صباحاً (السابعة وخمس دقائق حسب توقيت المحافظ والسابعة الا دقيقتين حسب توقيت پيير) عندما جاء الالمان ليأخذوا ڤوازان ولونوتر وجانڤييه . بقي شاڤيل جالساً مسنداً ظهره الى الحائط يرقب وجوه رفاقه في السجن منتظراً سماع دوي الاطلاقات ، كل ذلك جعله يحس بشعور بالخزي لم يحس بمثله من قبل طوال حياته . لقد اصبح واحداً منهم ، رجلاً دون مال او جاه وقد قبلوه في صفوفهم من غير أن يشعروا واخذوا يطبقون عليه معاييرهم نفسها ويدينونه . عاودته مشاعر الخزي والعار نفسها عندما كان يدور كالمتسول أمام باب الدار . فقد أدرك على مضض أنه مايزال في وسعه استغلال جانڤييه لمصلحته حتى بعد وفاته .

كانت النوافذ العارية تراقبه وهو يتقدم نحو البيت مثلما كانت تراقبه أعين الرجال الجالسين الى جدار زنزانة السجن . رفع بصره الى الاعلى وألقىٰ نظرة على كل مايستطيع رؤيته : أُطر الابواب وقد ذهب طلاؤها وصبغها والزجاج المكسور لنوافذ ماكان يوماً مكتبه ودرابزين الشرفه المكسور في مكانين . نظر الى قدميه مرة اخرى وهو يجرهما ببطء فوق الحصى متجهاً نحو البيت . خيل اليه ان البيت قد يكون فارغاً ولكن عندما دار حول زاوية الشرفة وصعد السلم ببطء لاحظ وجود علامات ضعيفة كتلك التي شاهدها في حديقة المطبخ تدل على ان البيت مشغول . السلالم نظيفة . مد يده وسحب حبل

الجرس بيأس . فقد حاول جاهداً وبذل كل ما في وسعه ألا يعود الى هذا المكان ولكن ها هو الان هنا .

(٧)

عندما عاد جان لوى شارلوت الى پاريس بعد خروجه من السجن كانت رايات الفرح والانتصار ترفرف منذ أشهر . كان وجه حذائه لايزال صالحاً اما الجزء الاسفل منه فقد أصبح رقيقاً كأنه من ورق ، وكان رداء المحاماة الداكن الذي كان يرتديه قبل دخول السجن يحمل علامات تدل على انه كان محفوظاً عدة أشهر . في السجن كان يعد نفسه انيقاً مهتماً بمظهره ولكن ملابسه الان تبدو كملابس بائع ادوات مستعملة عبثت بها اشعة الشمس القاسية وتركت فيها اثارها وابرزت اجزاءها الممسوحة وازرارها الناقصة ومظهرها العام الحقير . وكان عزاؤه ان پاريس نفسها بدت حقيرة .

كان يحمل في جيبه شفرة حلاقة ملفوفة في قصاصة من جريدة ومعها بقايا قالب صابون وكان يمتلك ثلاثمائة فرنك ولم تكن لديه أية مستندات أو هوية ولكنه كان يحمل ما هو أفضل من أية هوية . فقد كان لديه كتاب بتوقيع مأمور السجن دون فيه الالمان بعناية انه أمضىٰ سنة في السجن على الرغم من أن البيانات التي قدمها عن نفسه كانت غير صحيحة بما في ذلك الاسم المزيف شارلوت . وكانت مثل تلك الورقة في فرنسا حينئذ أهم من أية مستندات قانونية لأنها تؤكد ان الشخص المعني كان سجيناً لدى الالمان والسجين لايمكن ان يكون متعاوناً مع العدو ، يضاف الى ذلك أن المتعاونين مع الالمان

لم يكونوا يمتلكون اضابير سجون مصدقة تحتوي على أفضل الصور التي تبينهم في اوضاع جانبية مختلفة وكاملة مثلما كانت لديه . لقد تغيرت ملامحه بعض الشيء بعد أن أطلق لحيته ولكنها ماتزال ملامحه الاصلية نفسها اذا ما أمعن النظر في الصور .

لقد كان الالمان دقيقين جداً في التوثيق ولم يكونوا يكتفون بالصور وحدها للدلالة على الشخص المعني ، اذ من السهل استبدال صور هذه المستندات باخرى غيرها ويمكن ايضاً ازالة العلامات الفارقة او اضافتها عن طريق الجراحة التجميلية ولكن ليس من السهل بأية حال من الاحوال تغيير القياسات الفعلية للجمجمة فلذلك كان الالمان يدونون قياسات جمجمة السجناء في اضابيرهم بكل دقة .

ولكن على الرغم من كل ذلك كان شارلوت يشعر بالخوف من الملاحقة اكثر من أي شخص آخر كان يتعاون مع الالمان ، فقد كان ماضيه مشيناً ولم يكن في وسعه أن يشرح لاحد كيف تخلى عن امواله وان كان يظن ان الجميع يعرفون السبب . في منعطفات الشوارع كانت تلاحقه النظرات من وجوه كان يعتقد انه يعرفها وكان ينزل من الحافلات قبل أن يصل وجهته كلما وقعت عيناه على ظهور أشخاص ظنَّ انهم من معارفه السابقين . وكان يتعمد الذهاب الى تلك الاحياء الباريسية الغريبة عليه . أما باريس التي كان يعرفها ويتردد اليها دائماً فكانت صغيرة جداً وتشمل شقته وبناية المحاكم ودار الاوبرا والمحطة الغربية إضافة الى مطعم او مطعمين . وكان يسلك اقصر الطرق حتى عندما يتنقل بين هذه النقاط ، أما الان فقد كان عليه ان يخطو خطوات جانبية وان يكون في أراضٍ غير معروفة له . كان يرى انفاق القطارات غابات وكومبا والأحياء

الاخرى في ضواحي باريس صحارى يشعر بالامان عندما يتجول فيها .

ولكن كان عليه ان يجد لنفسه عملاً ، فالطواف وحده لايكفي . مرت عليه لحظات خاصة بعد أن تناول اول قدح من النبيذ بعد اطلاق سراحه شعر فيها كأنه قادر على أن يبدأ من جديد وان يجمع الثروة التي فرط بها واخيراً وفي غمرة حلم من احلام اليقظة وجد نفسه قد اشترىٰ مرة اخرى بيته الريفي في سان جان دي بريناك ورأىٰ نفسه يتجول بمرح بين الغرف،ولكن في تلك اللحظة تماماً رأىٰ انعكاس صورته على المِصْفَقْ . كانت صورة لوجه شارلوت الملتحي او الأحرى وجه الفشل . وأخذ يتأمل ما أغرب أن يصبح وجهه وجه متسكع سكير بسبب انهيار اعصابه وتخاذله مرة واحدة فقط ولكنه كان موضوعياً بحيث يكفي أن يبرر لنفسه انها لم تكن لحظة انهيار حسب ، بل أن حياته كلها كانت تهيئة لذلك الحدث . فالرسام لايرسم لوحته فقط في الساعات التي يقضيها ماسكاً فرشاته ، بل انه يوظف كل الخبرة التي كونها طوال حياته ليخرج بلوحة جميلة . وهكذا الحال مع الفشل . من حسن حظه أنه كان محامياً ناجحاً ورث من الاموال اكثر مما استطاع توفيره من خلال عمله وقد آمن الان انه لو اعتمد على نفسه حسب لما استطاع بلوغ المراكز العالية التي بلغها في حياته .

وعلى أية حال بدأ ببذل المحاولات لتوفير مورد مالي يؤمن له عيشة متوازنة معقولة . تقدم بطلب ليشغل وظيفة مدرس في أحد معاهد اللغة العديدة المنتشرة في المدينة . وعلى الرغم من ان الحرب كانت

لاتزال قائمة خارج حدود فرنسا ، الا ان اعمال معاهد اللغة هذه من امثال برليتز وقريناتها قد ازدهرت ، فقد كان هناك العديد من الجنود الاجانب الذين كانوا يتوقون الى تعلم اللغة الفرنسية ليحلوا محل السياح الذين كانوا يَفِدون الى المدينة في أوقات السلم .

وفي يوم المقابلة استقبله رجل نحيف وأنيق يرتدي بدلة فروك تفوح منها رائحة دواء العث . وبعد الانتهاء من المقابلة قال له :

- يؤسفني أن اقول لك إن لهجتك ليست جيدة تماماً .

- فأجابه شارلوت مستنكراً :

- ليست جيدة تماماً !

- ليست بالمستوى المطلوب في مؤسستنا . فنحن نطمح الى تحقيق مستوى عال جداً ويجب أن يتحدث مدرسونا باللهجة الباريسية على افضل صورها على الاطلاق . انا آسف ياسيدي .

كان الرجل يتحدث بوضوح وصراحة تامين كما لو انه اعتاد ان يتحدث الى الاجانب فقط مستخدماً أبسط العبارات والجمل . ويبدو انه قد تلقى تدريبه في تدريس اللغة على وفق طريقة «الاسلوب المباشر» . ثم إستقرت عيناه على حذاء شارلوت العتيق كأنه يتأمل شيئاً ما . غادر شارلوت المكان .

شيء ما في هيئة هذا الرجل ذكرّه بلونوتر . بعد أن غادر المعهد خطر بباله انه قد يستطيع توفير مورد عيش جيد اذا حصل على وظيفة كاتب في مكان ما ولا بد ان معرفته القانون ستكون مفيدة كما انه يستطيع تبرير موقفه أنه كان يأمل الحصول على اجازة ممارسة المحاماة وقد نفد ما لديه من نقود قبل ان يتحقق ذلك ...

رأى اعلاناً في جريدة الفيغارو عن وظيفة كاتب شاغرة . وكان عنوان محل العمل في الطابق الثالث من بناية مرتفعة رمادية اللون تقع في شارع فرعي من شارع هاوسمان ، دخل المكتب فتكون لديه انطباع يوحي بانه قد نظف مباشرة بعد جلاء قوات العدو المحتلة ، يبدو ان شخصاً ما كنس الاتربة والقش وكدس الاوساخ قرب الجدران وكان الاثاث يبدو كأنه أخرج من صناديقه تواً بعد ان كان محفوظاً سنين طويلة . عندما تضع الحرب اوزارها ينسىٰ المرء كم تقدم الزمن به وبالعالم من حوله ولابد من شيء كقطعة اثاث او قبعة امرأة لتوقظ فيه الاحساس بالزمن من جديد . كان الاثاث مصنوعاً من انابيب معدنية فكانت الغرفة تبدو غرفة مكائن في سفينة راسية منذ سنين ، فالأنابيب كانت صدئه وقد فقدت لمعانها . كان هذا الطراز من الاثاث يعد قديماً حتى في عام ١٩٣٩ . أما الآن ونحن في عام ١٩٤٤ ، فانه أقرب الى القطع الأثرية . استقبله رجل كبير السن ورحب به . لابد ان الرجل كان أنيقاً عندما كان شاباً ويهتم كثيراً بمظهره لاسيما عندما كان الاثاث لايزال جديداً . جلس الرجل العجوز على احد المقاعد كما لو انه كان في غرفة انتظار عامة وقال بأسىٰ :

ـ اعتقد انك ايضاً نسيت كل شيء شأنك في ذلك شأن الاخرين ؟

ـ اوه ، كلا فأنا اتذكر جيداً .

فقال الرجل العجوز :

ـ ليس في وسعنا دفع رواتب عالية هنا في الوقت الحاضر ، ولكن عندما تتحسن الامور .... كان الطلب عالياً على انتاجنا على الدوام .

فأجابه شارلوت :

ـ انا مستعد للبدء براتب قليل .

وقال الرجل العجوز :

ـ أهم شيء هنا هو الاندفاع والحماس وان تثق بالبضاعة التي تبيعها ، لقد اثبتت منتجاتنا جودتها وقد كانت مبيعاتنا جيدة جداً قبل نشوب الحرب ، صحيح أن هناك موسماً معيناً ولكن ثمة دائماً السياح الاجانب الذين يزورون باريس . كانت حتى المحافظات تشتري من منتجاتنا . كنت اود ان أطلعك على ارقام المبيعات ولكن يبدو ان سجلاتنا قد ضاعت .

كان اسلوبه هذا يوحي كما لو انه يحاول جذب مستثمر لمشروع وليس استخدام موظف .

فقال شارلوت :

ـ نعم ، نعم .

ـ علينا ان نجعل بضاعتنا معروفة مرة اخرى ، اذ ما أن تنتشر شهرتها حتى تصبح مرغوبة كما كانت سابقاً . المعرفة المهنية تؤكد ذلك .

ـ أظن انك على حق .

واستمر الرجل العجوز قائلاً :

ـ إذن ترى ان علينا جميعاً ان نبذل كل ما في وسعنا ... مشروع تعاوني ... الشعور بالولاء ... وستكون مدخراتك في مكان أمين .

وحرك يده فوق متاهة من المقاعد المدورة واضاف :

ـ انا أعدك بذلك .

لم يعرف شارلوت شيئاً عن الانتاج او طبيعته ولكن كان هناك صندوق خشبي مفتوح وفي داخله مصباح منضدي بطول ثلاثة اقدام مغطى بالقش ومصنوع على هيئة برج أيفل . وكان السلك الكهربائي ممتداً داخل فتحة المصاعد كأنه حبل مصعد عتيق في احد الفنادق ، اما المصباح نفسه فكان موضوعاً على قمة البرج . ربما كان هذا هو المصباح المنضدي الوحيد الذي استطاع الرجل العجوز الحصول عليه او ربما كان هو الانتاج الذي تحدث عنه ـ من يدري ؟

ثلاثمائة فرنك مبلغ زهيد ولا يبقىٰ طويلاً في باريس . وجد شارلوت اعلاناً آخر ولكن رب العمل لم يقتنع كثيراً باضبارة السجن وقال له :

ـ يمكنك شراء ماتشاء من هذه الاضابير مقابل مائة فرنك . كما انه لم يقتنع بالقياسات الدقيقة للسلطات الالمانية وقال :

ـ ليس من واجبي ان أقوم بقياس جمجمتك او مؤخرتك . إذهب الى قاعة البلدية واجلب اوراقاً اصولية . يبدو انك انسان كفء . سأحتفظ بالوظيفة لك حتىٰ ظهر يوم غد ...

ذهب شارلوت ولم يعد .

منذ ست وثلاثين ساعة لم يأكل شارلوت سوى قطعتي خبز . فجأة خطر بباله انه قد عاد الى نقطة البداية . اسند ظهره الى احد الجدران والشمس اوشكت ان تغيب وبدا له كأنه سمع صوت دقات ساعة المحافظ . شعر بعد كل هذا العناء والمسافات الطويلة التي قطعها كأنه عاد الى الطريق الرمادي في السجن وظهره مسند الى

الحائط بانتظار اطلاق الرصاص عليه . تمنى لو انه مات غنياً ووفر على نفسه والاخرين كل هذه المتاعب . واتجه نحو نهر السين .

لم يعد يسمع دقات ساعة المحافظ ولكن كانت تتناهى الى سمعه اصوات خطوات خافتة لقدمين يجرهما صاحبهما جراً على الارض . كان الصوت يتبعه حيثما ادار وجهه وكان يسمعه مثلما سمع صوت ساعة المحافظ . لم يكن متأكداً تماماً ان هذه الاصوات كانت مجرد اوهام من نسج خياله . كانت مياه النهر تتلألأ في نهاية الشارع الطويل . شعر بالارهاق واتكأ على جدار مبولة قريبة وانتظر فترة ورأسه مطأطأ لان بريق مياه النهر كان يبهر عينيه . اقترب منه صوت جر القدمين بخفة وتوقف خلفه. حسناً ، لقد توقفت الساعة أيضاً . رفض ان يصدق الاوهام . سمع صوتاً يناديه :

ـ پيدو ، پيدو .

نظر حواليه بحدة ، لكنه لم يجد شخصاً . تكرر الصوت :

ـ انك پيدو ، أليس كذلك ؟

فسأله شارلوت :

ـ أين انت ؟

ـ هنا .

مرت لحظة صمت وجاءه الصوت مرة اخرى كأنه صوت الضمير يهمس في أذنيه :

ـ تبدو في وضع تعيس وكأنك وصلت النهاية . لم اتعرف اليك إلا بصعوبة . اخبرني هل هناك أحد قادم ؟

فأجابه شارلوت :

ـ كلا .

لو كان ما يزال طفلاً في الريف وفي غابات بريناك لظن ان الزهور يمكن ان تتكلم او أن الاصوات تخرج من جذور الاشجار ولكن عندما يكون الانسان في المدينة وعندما يكون قد بلغ سن الموت فمن الصعب عليه أن يصدق ان احجار الرصيف يمكن ان تتكلم . سأل مرة أخرى :

ـ أين انت ؟

عند ذاك فقط أدرك شارلوت مدى غبائه ، فقد رأى ساقي رجل يقف تحت سقف المبولة الاخضر . رأى بنطلوناً اسود اللون ذا خطوط بيض رفيعة مثل ذلك الذي يرتديه المحامون او الاطباء او حتى نواب البرلمان . ولكن كان واضحاً ان الحذاء لم ينظف منذ أمد بعيد .

ـ انا السيد كاروس ، ياپيدو .

ـ نعم ؟

ـ لاشك في انك تقدر الظروف ، فمن السهل أن يساء فهم الانسان في هذه الايام .

ـ أجل .

ـ وهل كان في وسعي ان افعل شيئاً آخر ؟ كان علي ان استمر في التمثيلية . لم تكن هناك شائبة تشوب سلوكي . ليس ثمة من يعرف ذلك افضل منك ياپيدو المسكين . أظن ان للمقاومة حساباً معك ايضا ، أليس كذلك ؟

ـ لقد انتهى كل شي بالنسبة الي .

ـ كن شجاعاً يابيدو . إنس الموت . لي إبن عم كان في لندن في اثناء الحرب وهو يحاول الان جاهداً تصحيح الامور . لاشك في أن لك أيضاً بعض المعارف من رجال المقاومة .

ـ لماذا لاتخرج من هناك حتىٰ استطيع رؤية وجهك ؟

ـ الافضل ألا افعل ذلك يابيدو . يمكننا ان نتفاهم هكذا ولكن هناك خطورة كبيرة لو التقينا .

وبدأ البنطلون الاسود المخطط بالتحرك قلقاً .

ـ هل من أحد قادم نحونا ؟

ـ كلا .

ـ اسمع يابيدو ، اريد أن توصل رسالة مني الى السيدة كاروس . اخبرها بأنني في صحة جيدة وبأنني ذاهب الى الجنوب . سأحاول الذهاب الى سويسرا الى ان تهدأ الامور ، اظن ، ايها المسكين بيدو ، ان مائتي فرنك يمكن ان تكون ذات فائدة لك ؟

ـ نعم .

ـ سأتركها على الرف هنا . ستقوم بايصال الرسالة ، أليس كذلك يابيدو ؟

ـ الى أين ؟

ـ اوه ، الى العنوان السابق نفسه ، في الطابق الثالث ، كما تعرف . آمل ان العجوز مازالت محتفظة بشعرها ، لقد كانت فخورة به . حسناً ، الى اللقاء واتمنىٰ لك حظاً سعيداً يابيدو .

مرة اخرى سمع شارلوت صوت جر الاقدام على الارض مبتعداً في الاتجاه المعاكس . راقب شارلوت الرجل الغريب وهو يبتعد . انه

رجل طويل وبدين وكان يرتدي ملابس سوداء ، يعرج قليلاً في مشيته ويرتدي قبعة من النوع نفسه الذي كان يرتديه شارلوت قبل عدة سنوات وهو يتنقل بين شارع ميرومنيل وبناية المحاكم .

على أحد الرفوف في المبولة كانت هناك رزمة صغيرة وفي داخلها ثلاثمائة فرنك . وكائناً من يكون السيد كاروس هذا فقد كان يتمتع بخصلة نادرة وهي انه تصرف بأفضل مما وعد . ضحك شارلوت وترددت ضحكته بين فجوات جدران المبولة الحديدية . مر اسبوع على اطلاق سراحه وقد عاد ثانية الى نقطة البداية وفي جيبه ثلاثمائه فرنك . خطر بباله انه أمضى فترة من الزمن معتمداً على الهواء فقط أو أن ساحرة طيبة في الظاهر وخبيثة في الباطن قد وهبته محفظة لاتنفد ولكنها لاتسمح له بان يسحب منها اكثر من ثلاثمائة فرنك في المرة الواحدة ، او ربما قام الرجل الذي مات بدلاً منه بتخصيص هذا المبلغ له من ضمن الثلاثمائة الف فرنك التي تنازل له عنها . قرر شارلوت أن يكتشف السر حالاً . مافائدة أن يقتصد في إنفاق هذا المبلغ خلال اسبوع كامل وكل ما يحصل عليه مقابل ذلك هو ان يتقدم به العمر اسبوعاً آخر وان يزداد تعاسة . اعتاد في السابق وفي مثل هذه الساعة من ساعات النهار أن يتناول مشروباً خفيفاً ، فقرر فجأة ان يفعل ذلك ، وأول مرة منذ وصوله باريس تعمد الدخول الى منطقته الخاصة ، تلك المنطقة التي كان يعرفها جيداً .

لم يذق حتى ذلك الوقت طعم الغربة في باريس جيداً ، فالشارع غير المألوف له هو الذي لم تطأه قدماه ، ولكنه في هذه المرة لاحظ الفراغ والدراجات الهوائية التي كانت تستعمل لنقل الركاب وهي

مركونة بصمت وكذلك الشمسيات البائسة فوق الشبابيك ووجوهاً غريبة لم يألفها من قبل . هنا وهناك كان عدد من الغرباء جالسين في الاماكن التي كان يجلس فيها هو سنين يرتشفون مشروباً مما كان يتناوله . كانوا مثل بقايا زهور قديمة انتصبت بين قفر من الادغال والاعشاب بعد مغادرة مستأجر مهمل .

«لقد قررت ان أموت هذه الليلة ، ماذا يهم اذا تعرف اليَّ أُحد» ، تحدث الى نفسه وهو يدفع الباب الزجاجي للمقهىٰ الذي كان يرتاده واتجه الى زاويته المفضلة في النهاية اليمنىٰ لاريكة طويلة تعلوها مرآة مذهبة قاصداً المكان الذي كان يجلس فيه دائماً كأنه يمارس حقاً من حقوقه . ولكن المكان كان مشغولاً .

كان يجلس فيه جندي أميركي . كان شاباً ذا وجنتين ناتئتي العظام تعلو وجهه مسحة من البراءة والغباء . إنحنى له النادل مبتسماً وتبادل معه بعض الكلمات وكأنه أقدم زبائن المحل . جلس شارلوت وهو يراقب مايجري كأن احداً يرتكب الزِّنى . مر كبير النُدُل بجانبه دون أن يعيره أي اهتمام كأن لاوجود له بينما كان فيما مضى يتوقف دائماً عند مائدته ويتجاذب معه اطراف الحديث . وسرعان ماعرف شارلوت السبب ، فقد اخرج اليانكي رزمة كبيرة من الاوراق النقدية ليدفع قائمة الحساب ، تذكر انه ايضاً كان يحمل مثل هذه الرزم وانه ايضاً كان كريماً في الدفع ، اما الان فانه كان ببساطة خالي الوفاض لايمتلك مالاً . ولكنه لم يكن قد تحول الى شبح حتى لا يراه النادل. تناول مشروبه وطلب كأساً اخرى وقد أغضبه بطء الخدمة . نادىٰ كبير النُدُل فحاول الرجل أن يتجنبه ولكنه اضطر

اخيراً الى ان يتوجه الى مائدته . فقال له شارلوت :
ـ حسناً ياجول .

رمش الرجل عينيه الغائرتين تعبيراً عن سخطه . ففكر شارلوت في ان الرجل لم يرق له أن يسمع اسمه الاول من شخص لايعرفه وليس من مقربيه أو الأحرى من الذين يدفعون اليه بسخاء .

إستمر شارلوت يخاطبه :
ـ يبدو انك لاتذكرني .

بدت على الرجل علامات عدم الارتياح ، لان صدىً مألوفاً من الماضي ربما تردد في اذنيه . وعلى أية حال فانه محق بعض الشيء ، فقد تغيرت الامور واختفى بعض زبائنه بالمرة بينما عاد آخرون كانوا مختفين وقد غيرتهم السجون ، كما كانت هناك فئة اخرى لم تختف نهائياً ، ولقد ادرك النادل بطريقة ما أن من مصلحته ان لايفسح المجال لهذه الفئة . وخاطب شارلوت قائلاً :
ـ حسناً ياسيدي ، أظن انك لم تتردد الى هذا المكان منذ وقت طويل ...
وأخذ الاميركي يضرب على طاولته بقطعة نقدية محدثاً صوتاً عالياً ، فقال النادل وهو يهم بتركه :
ـ أرجو المعذرة .

فأجابه شافيل وهو يضع يده على لحيته :
ـ كلا كلا ياجول ، لايمكنك أن تترك زبوناً قديماً بهذه الطريقة . إنس اللحية ، ألم تر فيَّ زميلاً قديماً باسم شافيل ياجول ؟

واستأنف الاميركي الضرب على الطاولة بقطعة النقد المعدنية ،

ولكن جول لم يعره أي اهتمام هذه المرة واشار الى نادل آخر ليلبي طلبه ، وقال :

ـ اوه ، لماذا ياسيد شافيل ، لقد تغيرت كثيراً ، يالدهشتي ، لقد سمعت ...

ولكن بدا واضحاً أنه نسي ما كان قد سمعه . كان من الصعب عليه أن يتذكر مَنْ من زبائنه كان من الابطال أو من الخونة أو مجرد زبائن .

فأجابه شافيل قائلاً :

ـ كنت سجيناً لدى الالمان .

فقال جول وعلامات الارتياح بادية على وجهه :

ـ آه ، هكذا اذن . لقد بدأت باريس تعود الى حالتها الطبيعية تقريباً .

فقال شارلوت مشيراً برأسه الى المكان الذي اعتاد الجلوس فيه سابقاً :

ـ ليس تماماً ياجول .

ـ اوه ، سوف أحجز لك الطاولة غداً ياسيد شافيل . كيف بيتك ؟ بالمناسبة ، أين كان يقع ؟

ـ في بريناك ، هناك مستأجر حالياً .

ـ ألم يتعرض للدمار ؟

ـ لا أظن . لم أذهب لرؤيته حتى الان . في الحقيقة وصلت الى باريس تواً . لدي مبلغ ضئيل من النقود يكاد يكفي للمبيت .

ـ يمكنني ايواؤك بعض الوقت ياسيد شافيل .

ـ كلا ، كلا . سأتدبر أمري بشكل من الاشكال .
ـ لابد أن تكون ضيفاً علينا هذه الليلة على الاقل . هل آتيك بقدح اخر من الكونياك ياسيد شافيل .
ـ شكراً ياجول .

وفكر ان الاختبار قد نجح . فما تزال المحفظة في مكانها ، وما يزال يملك ثلاثمائة فرنك في جيبه .
ـ وخاطب النادل قائلًا :
ـ هل تؤمن بوجود الشيطان ياجول ؟
ـ فعلًا ياسيد شافيل .

وجازف أكثر وقال :
ـ أظن انك لم تسمع بانني عرضت بريناك للبيع .
ـ وهل تقدم أحد لشرائه بسعر جيد ياسيد شافيل ؟

فجأة شعر أنه يمقت جول . فلم يصدق أن هناك إنساناً على هذه الدرجة من الوضاعة . فقد كان مستعداً لأن يبيع كل مايملك في هذه الدنيا ، حتى حياته ، مقابل سعر جيد فقال :
ـ آسف .
ـ آسف على ماذا ياسيد شافيل ؟
ـ بعد كل هذه السنين أليست هناك مئات الاشياء التي يمكن ان نشعر بالأسف من أجلها ؟
ـ ليس هناك ما يدعو الى الأسف هنا ياسيد شافيل . أؤكد لك أن تصرفاتنا كانت سليمة دوماً . كانت خدمة الزبون الفرنسي أولًا مسألة مبدأ لدينا حتى لو كان الزبون الالماني جنرالًا .

لقد حَسَدَ جول لأنه استطاع أن يبقى "نزيهاً" وأن يحافظ على احترامه ذاته من خلال جرعات صغيرة من الوقاحة واللامبالاة . أما هو فبقاؤه "نزيهاً" كان سيعني الموت ، وقال فجأة :

- هل ما تزال هناك قطارات تسير من المحطة الغربية ؟

- نعم لايزال هناك عدد قليل منها ولكنها بطيئة جداً ، فالوقود قليل والقطارات تقف في كل محطة في الطريق ، وفي بعض الاحيان تقضي الليل كله في محطة ما ولا يمكنك الوصول الى بريناك قبل الصباح .

- لست في عجلة من امري .

- هل هناك من يتوقع وصولك ياسيد شافيل ؟

- من ؟

- المستأجرون .

- كلا .

بدأ البراندي يسير في قنوات عقله الدفينة وهو جالس في مقهاه القديم المألوف حيث لايزال يتذكر جيداً مواضع الثُلَم الصغيرة في المرايا والافريزات . شعر برغبة شديدة في ان يقف على قدميه ويركب القطار ليذهب الى البيت كما كان يفعل في السنين الخوالي . فجأة استسلم لنزوته وشعر بالحاجة الى ان يرحب به أحد في النهاية الاخرى وفكر في نفسه : "بعد كل ماجرىٰ لاداعي لاستعجال الموت . لايزال هناك وقت كاف لكي يموت الانسان" .

(٨)

كان الجرس ، شأنه شأن معظم الاشياء الآخرى في البيت ، من الطراز القديم . كان أبوه يكره الكهرباء . فعلى الرغم من انه كان يستطيع ايصالها الى البيت الريفي في بريناك ، الا انه فضل استعمال القناديل حتى وفاته لانها على حد تعبيره افضل للعين . وكان أيضاً يفضل استعمال الاجراس القديمة من النوع الذي يربط بأسلاك معدنية طويلة تصل بين مقبض في الباب والجرس في داخل البيت . يسحب الطارق المقبض فتنسحب الاسلاك حتى يقرع الجرس . أما هو فقد كان يحب المكان بحيث لم يشأ تغيير أي شيء فيه . فعندما يأتي الى بريناك يشعر كما لو أنه يلجأ الى كهف هادىء مظلم . ولم يكن هناك جهاز هاتف حتى تلاحقه المكالمات السمجة . كان في وسعه الان أن يسمع رنين السلك المعدني الطويل قبل ان يبدأ الجرس بالتأرجح خلف البيت في الغرفة المجاورة للمطبخ . لاشك في ان نبرة الجرس وهو خارج البيت تختلف عن نبرته لو كان هو مايزال صاحب الدار . كانت نبرة أقل فراغاً واكثر وداً وليست مثل هذه النبرة المتقطعة التي تشبه السعال الخارج من صدر منهك ... هبت نسمة صباحية باردة من الاحراش محركة الاعشاب النامية بارتفاع الكاحلين في الطريق المؤدي من الباب الى المبنى . في مكان ما ، ربما في سقيفة الشتلات خفقت قطعة خشب غير مثبتة . وفتح الباب دون أي انذار .

لابد انها أخت جانفييه . لقد أدرك الشبه من اول نظرة وتصور

سماتها القريبة جداً من سمات أخيها . كانت جميلة ونحيفة وصغيرة السن لما تظهر عليها بعد قسمات الطيش التي يبدو انها كانت صفة عائلية . والان ادرك بعد أن وجد نفسه وإياها وجهاً لوجه انه ليس لديه مايقوله لتوضيح مايريد . وقف هناك كأنه صفحة مكتوبة بالآلة الكاتبة تنتظر من يقرأ ما فيها .

فقالت له :

ـ هل تريد طعاماً ؟

قرأت الصفحة المكتوبة أمامها كلها كما يفعل العديد من النساء ومن النظرة الاولى حتى انها وصلت الى هامش الصفحة المتمثل في حذائه المتهرىء من كثرة الاستعمال . قامت بحركة مزدوجة المعنى يمكن ان تفسر على انها رفض أو قبول وقالت :

ـ ليس لدينا الكثير من الطعام في البيت . تعرف جيداً كيف تسير الامور هذه الايام ، من الأسهل لو أعطيتك شيئاً من المال .

فأجابها :

ـ لدي بعض المال ، ثلاثمائة فرنك .

فقالت :

ـ أدخل اذن وحاول ألا تترك اية اوساخ ، فقد فرغت تواً من مسح هذه السلالم .

قال بتواضع :

ـ سوف أخلع حذائي .

تبعها الى داخل البيت وشعر ببرودة الارضية المفروشة بقطع خشب مزخرفة تحت جواربه . تغير كل شيء ولكن الى الأسوأ . لم

يكن هناك أدنى شك في أن البيت قد جرىٰ التنازل عنه الى غرباء . كانت المرآة الكبيرة على الحائط قد انزلت من مكانها تاركة اثرها على الحائط . كما نقلت خزانة الملابس من مكانها واختفى احد الكراسي . كانت هناك لوحة معدنية تذكارية عن معركة بحرية قبالة بريست معلقة على الحائط وقد علقت في مكان جديد وبطريقة بعيدة عن الذوق كما خطر في ذهنه . أخذ يبحث عبثاً عن صورة فوتوغرافية لوالده كانت معلقة سابقاً على الحائط وعندما لم يجدها سأل بغضب فجأة :

ـ أين ...؟

ـ أين ماذا ؟

إنتبه لنفسه وقال :

ـ والدتك .

التفتت اليه الفتاة ونظرت الى وجهه كما لو ان شيئاً ما فاتها عندما رأته اول مرة وسألته :

ـ وكيف عرفت أمر والدتي ؟

ـ اخبرني عنها جانشيه .

ـ ومن هو جانشيه ؟ لاأعرف شخصاً بهذا الاسم .

ـ إنه اخوك ، كنا نسميه بهذا الاسم عندما كنا في السجن .

ـ وهل كنت معه في السجن ؟

ـ نعم .

عرف بعد حين انها لم تفعل ما كان متوقعاً منها ولم يبدر منها رد الفعل المتوقع . فقد كان يظن انها ستنادي أُمها ولكنها بدلاً من ذلك

أمسكت بذراعه وقالت له :

ـ حاول أن تتكلم بصوت منخفض ، إن أمي لاتعرف شيئاً عن الموضوع .

ـ عن موته ؟

ـ عن كل شيء . إنها تعتقد أنه نجح في تكوين ثروة له في مكان ما ، في انكلترا او في جنوبي أميركا . انها فخورة به وتقول دائماً انها كانت تعلم منذ البداية ان ابنها انسان موهوب . ماأسمك ؟

ـ شارلوت ، جان لوي شارلوت .

ـ وهل كنت تعرف الشخص الاخر ايضاً ؟

ـ تقصدين .. نعم كنت اعرفه . أظن ان من الافضل أن اغادر الان قبل ان تأتي والدتك .

وجاء صوت عالٍ من فوق السلالم وكان واضحاً انه صوت شخص كبير السن وسأل :

ـ تيريز ، من هناك ؟

فأجابت الفتاة :

ـ شخص مايقول انه يعرف ميشيل .

ظهرت امرأة كبيرة الحجم طاعنة في السن تسحب نفسها بصعوبة الى اسفل السلم . كانت تأتزر بشال كبير لفته على نفسها عدة مرات حتى بدت كأنها سرير لم يقلب شراشفه أحد ، وكانت حتى أقدامها ملفوفة .

تخطت نحوه وهي تمشي بهدوء . كان من الصعب أن يجد الانسان في هذا الجبل البشري أي عنصر مثير للشفقة أو أن يشعر

بانها بحاجة الى أن يسهر أحد على راحتها . فقد كان الثديان الهائلان الممتلئان بالأمومة يوحيان بانهما وجدا لكي يوفرا الراحة للآخرين وليس لكي يوفر أحد الراحة لهما . فسألت :

ـ جسناً ، كيف حال ميشيل ؟

أجابت الفتاة :

ـ انه بخير .

ـ لم اسألك انتِ . كيف حال ميشيل ؟

فأجابها شارلوت :

ـ تركته وهو بخير . لقد سألني أن آمر بكِ لأرىٰ كيف تسير أمورك .

فقالت بحدة :

ـ سألك ، أليس كذلك ؟ كان في وسعه أن يعطيك حذاءً لتلبسه . أرجو ألا يكون ارتكب حماقة اخرى ، هل خسر أمواله مرة اخرى ؟

ـ كلا ، كلا .

واستمرت العجوز تقول بحماس بالغ :

ـ اشترى كل هذا لأمه العجوز . إنه ولد طائش . كنت أُعيش مرتاحة في بيتي القديم في منيل مونتان . كانت فيه ثلاث غرف وكان من السهل تنظيفه وادارته ولكن هنا من الصعوبة ان نجد من يساعدنا . هذا البيت يتطلب جهداً كبيراً لاتقدر عليه امرأة عجوز وفتاة . لقد أرسل لنا بعض المال ايضاً ولكن يبدو انه نسي أن هناك في هذه الايام أشياء لايمكن شراؤها بالنقود . فقاطعتها الفتاة قائلة :

ـ انه جائع .

ـ حسناً اذن ، اعطيه شيئاً من الطعام . ان وقوفه بهذا الشكل

يوحي بانه شحاذ . اذا كان يريد شيئاً من الطعام فلماذا لم يقل من البداية ؟

كانت تتحدث وكأنه ابتعد عنها ولم يعد يسمع . فقاطعها بغلظة وقال :

ـ سوف أدفع ثمن الطعام .

ـ ستدفع ثمن الطعام ، أليس كذلك ؟ يبدو انك سريع جداً في عرض نقودك ولكن تأكد ان هذا لن يوصلك الى نتيجة . احتفظ بنقودك ولا تدفع الا بعد ان يسألك أحد ذلك .

كانت تبدو كأنها أحد رموز الحكمة وقد أكل عليها الدهر وشرب ، رمز مثل تلك الرموز التي تجدها في الصحارى مثل أبي الهول ولكن كان واضحاً انها تعاني من فراغ هائل سببه الجهل ، ولذلك كانت حكمتها تبدو ناقصة .

كان هناك باب ذو مقبض مثلوم في الجانب الايسر من حجرة الجلوس الرئيسة يؤدي الى ممر طويل مرصوف بالحجر وكان هذا الممر يلف حول نصف البيت . تذكر كيف ان الطعام كان يبرد في الشتاء في اثناء نقله من المطبخ وكيف ان والده كان يخطط لاجراء تحويرات في البيت لهذا السبب ولكن البيت كان هو الرابح دائماً ، إذ بقيت الحال على ما هي عليه . ومن دون وعي خطا خطوة باتجاه الباب كمن يعرف طريقه جيداً ولكنه توقف وفكر «يجب أن أكون حذراً جيداً» . وسار خلف تيريز بهدوء وقال لنفسه ماأغرب ان يقابل الانسان فتاة صغيرة في هذا البيت في الوقت الذي لم يكن فيه سابقاً سوى خدم كبار السن وأفظاظ وثقات . كان الشباب موجوداً في

الصور الشخصية المعلقة فقط ، فكانت هناك صورة أمه يوم زفافها وقد علقت في غرفة النوم الرئيسه وصورة أبيه يوم تخرجه في كلية الحقوق وصورة جدته مع طفلها الاول ، هؤلاء كانوا الشباب الوحيدين في هذا البيت . شعر بانقباض وكآبة وهو يتبع الفتاة وكأنه جاء بعروسه الى البيت القديم .

أعطته بعض الخبز والجبن وقدحاً من النبيذ وجلست أمامه الى طاولة المطبخ . كان صامتاً بسبب الجوع وبسبب الافكار التي كانت تملأ رأسه . لم يدخل هذا المطبخ منذ ان كان طفلاً يافعاً حيث اعتاد أن يأتي اليه من الحديقة حوالي الساعة الحادية عشرة كل يوم ليخطف مايستطيع مما يؤكل . كانت تشتغل في المطبخ في ذلك الوقت طباخة عجوز ـ وهي الاخرى عجوز ايضاً ـ كانت تحبه كثيراً وتطعمه وتعطيه لعباً غريبة الشكل ليلعب بها . لم يستطع أن يتذكر من تلك اللعب سوى حبة بطاطا وضعتها الطباخة على ملعقة لتصبح على هيئة رجل وكذلك عظمة ترقوة طائر وقد ألبستها بعض الملابس بعناية وكانت على شكل عجوز ترتدي قبعة واخيراً عظمة ضأن كان يعتقد أنذاك أنها رمح افريقي . قالت له الفتاة :

ـ أخبرني عنه .

كان ذلك أقصى مايخشاه ولو انه كان يتوقع مثل ذلك السؤال وكان قد هيأ نفسه بعبارات مناسبة ولكنها زائفة وأجابها :

ـ لقد كان مصدر الحيوية والنشاط في السجن ، حتى حراس السجن كانوا يحبونه ،

فقاطعته وقالت :

ـ لم أقصد ميشيل ، اخبرني عن الشخص الاخر .
ـ الرجل الذي ...
ـ أقصد شاڤيل ، وهل ستظنني سأنسىٰ إسمه ؟ أستطيع أن أرىٰ اسمه وهو يدونه على المستندات ، جان لوي شاڤيل . هل تعرف مااقوله لنفسي دوماً ؟ اقول انه سيعود يوماً الى هنا لأنه لايستطيع مقاومة رغبته في رؤية ماحدث لبيته الجميل ، بين الحين والاخر يمر عدد من الغرباء من هنا ، جياع مثلك ، وكلما يقرع أحد الجرس أقول قد يكون هو .
فسألها شارلوت :
ـ وماذا بعد أن يأتي ؟
ـ سوف أبصق في وجهه .
كانت تلك اول مرة يلاحظ فيها شارلوت فمها ، كان جميلاً يشبه فم جانڤييه كما كان يتذكر ، واستمرت الفتاة قائلة :
ـ ذلك أول ما افعله ...
فقال بحذر :
ـ ولكن لايزال البيت جميلاً ..
فقالت :
ـ افكر في بعض الاحيان في اشعال النار في البيت ولكنني أتردد بسبب العجوز . يا له من أحمق .
قالت ذلك وهي تصيح في وجه شارلوت وكأنها المرة الاولى التي يتاح لها أن تقول ماتضمره بصوت عال واضافت :
ـ هل كان حقاً يريد أن يصبح البيت لي وليس له ؟

فأجابها شارلوت وهو يراقبها :

ـ لقد كنتما توأمين ، أليس كذلك ؟

ـ هل تصدق بأنني شعرت بألم شديد في الليلة التي اطلقوا عليه النار وقد جلست في فراشي وبكيت .

وقال لها شارلوت :

ـ لم يحدث ذلك في الليل ، لقد اطلقوا النار عليه في الصباح .

ـ ألم يحدث ذلك في الليل اذن ؟

ـ كلا .

ـ فكيف اذن تفسر ماحدث لي ؟

ـ لاشيء .

أخذ شارلوت قطعة من الجبن وقطعها الى مربعات صغيرة وقال :

ـ هكذا الاشياء غالباً . نحن نعتقد ان هناك تفسيراً معيناً ومعنى لكل شيء ولكننا نكتشف بعد فترة ان الحقائق ليست سوى أوهام . بكل بساطة ليست هناك حتى حقيقة واحدة . تستيقظين من النوم بسبب الألم وبعد فترة تظنين ان السبب هو الحب ... ولكن الحقائق تتناقض والواقع .

فقالت له الفتاة :

ـ لقد أحب بعضنا بعضاً كثيراً ، أشعر بانني ميتة ايضاً .

استمر يقطع الجبن وقال بأدب :

ـ سترين ان الحقائق ليست إلا أوهاماً .

كان يحاول اقناع نفسه بانه لم يكن مسؤولاً عن موت شخصين . شعر بارتياح لأنها استيقظت في اثناء الليل في تلك الليلة وليس في

السابعة صباحاً .
قالت له مرة اخرى :
ـ لم تخبرني كيف كان الاخر ، وما هي أوصافه ؟
أجابها وهو يختار كلماته بعناية فائقة :
ـ كان أطول مني بقليل وقد يكون بمقدار انج واحد أو اقل . وجهه كان حليقاً نظيفاً .
فقالت :
ـ ذلك لايعني شيئاً على الاطلاق . يمكن للرجل أن يطلق لحيته في غضون اسبوع ، وكيف كان لون عينيه ؟
ـ كانتا زرقاوين ولو انهما تبدوان رماديتين في الضوء .
ـ هل تستطيع ان تخبرني إن كانت لديه علامة فارقة واحدة يمكن تمييزه بواسطتها ؟ ألم تكن له ندبة في مكان ما من جسمه ؟
شعر باغراء لكي يكذب ولكنه قاوم رغبته وقال :
ـ كلا ، لاأذكر اي شيء مميز . كان مجرد رجل مثلنا .
فقالت الفتاة :
ـ ذات مرة اردت ان اذهب الى القرية لآتي بشخص يعاوننا في شؤون البيت وليراقب ، في الوقت نفسه ، مجيئه ولكنني لااثق باحد منهم . كان شافيل رجلاً محبوباً في القرية وذلك لان أهل القرية كانوا يعرفونه مذ كان صغيراً . الناس كالمعتاد لايهتمون بخسة طفل وعندما يكبر يعتادونها ويفقدون القدرة على ملاحظتها .
كانت هي ايضاً لديها بعض الاقوال والحكم شأنها في ذلك شأن والدتها ولكن مع فارق ان مقولاتها كانت موروثة وقد تعلمتها مع

أخيها من الشارع ، وكانت هذه المقولات ذات سمة رجولية .

سألها شارلوت :

ـ هل يعرف أهل القرية حقيقة مافعل ؟

ـ وماذا يهم لو عرفوا . سوف يفسرون تصرفه بانه براعة ومكر من مواطن پاريسي . ولسوف يجلسون في اماكنهم يراقبونه ليفعلها مرة ثانية . انا ايضاً انتظر ذلك . لقد كان محامياً ، أليس كذلك ؟ ألا تعتقد انه قد تمكن بطريقة ما من إبطال تلك الاوراق .

فأجابها شارلوت :

ـ اعتقد انه لشدة خوفه لم يستطع التفكير بمثل هذا الوضوح . فلو فكر بهذا الوضوح لكان قد مات ، أليس كذلك ؟

قالت الفتاة :

ـ يمكنك أن تجزم أنه عندما يموت سيتمتع بالرحمة وسيتمتم بالسر المقدس في فمه وسيغفر لكل اعدائه . انا واثقة بانه لن يموت إلا بعد أن ينجح في خداع الشيطان .

ـ ما أشد ما تكرهينه !

ـ أما انا فستحل بي اللعنة لأنني لن اغفر . لن أموت في حالة من الرحمة .

واضافت :

ـ ظننتك جائعاً ولكنك لم تأكل شيئاً من الجبن ، انها جبنة جيدة .

ـ لقد حان وقت انصرافي.

ـ ولم هذه العجلة . هل سمحوا له بأن يقابل القس قبل موته؟

ـ اوه، نعم، اظن ذلك. كان هناك قس بين السجناء في احدى

الزنزانات وكان يقوم بمثل هذه الاعمال.

ـ إلى أين ستذهب من هنا؟

ـ لااعرف.

ـ هل تبحث عن عمل؟

ـ يئست من البحث.

فقالت له:

ـ بوسعنا ان نتحمل رجلاً في هذا المكان. لا تستطيع امرأتان وحدهما تنظيف بيت كهذا. هناك الحديقة ايضاً .

ـ لاتنفعني مثل هذه الوظيفة.

ـ ستكون كما تشاء. وأما الاجر فلن نختلف بشأنه .

واضافت بمرارة:

ـ نحن اغنياء.

قال مع نفسه :«اتمنى لو استطيع... ان اعيش بهدوء... في بيتي... مدة اسبوع واحد فقط».

وقالت له:

ـ ولكن واجبك الرئيس والذي سأدفع اليك الراتب عنه هو ان تراقب مجيء شافيل وتتهيأ له.

(٩)

في اليوم الاول شعر بالغربة والمرارة. ان يشتغل المرء في بيته في اشغال تافهة ، كان امراً غير مألوف ولا يبعث على الطمأنينة. ولكن

بعد ان مر اليوم الثاني اصبح كل شيء اعتيادي. اذا كان الانسان يحب بيته حباً جماً فليس من الضروري ان يمتلكه، يكفي ان يعرف فقط ان البيت في امان ولم يتغير فيه شيء. واذا حصل تغيير فانه تغيير طبيعي وحدث بفعل الزمن والظروف. كان يعد السيدة مانجو وابنتها مجرد نزيلين وقتيين . واذا كانتا قد غيرتا مكان صورة ما فانما فعلتا ذلك لاسباب عملية كأن تقللان من حجم عملية التنظيف وازالة الغبار او لرغبتهما في وضع صورة اخرىٰ بدلاً منها. كما انهما لم تقدما علىٰ قطع شجرة من الاشجار من اجل منظر افضل ولا علىٰ تغيير تأثيث احدىٰ الغرف لتتماشىٰ وآخر الصيحات. ولا يمكن عدهما حتى نزيلين قانونيين بل كانتا اقرب الىٰ الغجر وقد وجدتا المكان فارغاً واستغلتا بعض الغرف لتعيشا فيها وزرعتا زاوية صغيرة من الحديقة بعيداً عن الطريق وكانتا حذرتين جداً من ان تشعلا ناراً حتى لايعرف الناس بوجودهما هناك من خلال الدخان المتصاعد.

لم تكن هذه الافكار محض اوهام. فقد كانتا خائفتين من اهل القرية . كانت الفتاة تذهب الىٰ بريناك مرة واحدة في الاسبوع مشياً علىٰ الاقدام لشراء ما تحتاجه للبيت علىٰ الرغم من انه كانت هناك عربة كان يمكن تأجيرها في سان جان. كما كانت العجوز تذهب الىٰ الكنيسة مرة كل اسبوع بصحبة ابنتها التي ترافقها الىٰ باب الكنيسة وتنتظرها هناك حتىٰ تنتهي الصلاة.

وكانت العجوز تتأخر دائماً في دخول الكنيسة اذ لم تدخلها إلّا قبل لحظات فقط من بدء القس بقراءة الانجيل. وكانت تنهض من مكانها حالما يلفظ عبارة «اذهبوا بسلام» وبذلك كانت تتجنب مقابلة

المصلين خارج الكنيسة. وقد وجد شارلوت ذلك ملائماً. ولم يجد هو أو الفتاة اية غرابة في ان يتجنب هو ايضاً لقاء الناس.

أصبح الذهاب الىٰ بريناك لشراء احتياجات البيت من واجبهِ. اول مرة ذهب فيها الىٰ السوق انتابه شعور عارم بأن كل شيء كان يحاول فضحه وكشف سره وشعر بأنه حتى لو لم يتعرف اليه اي انسان فأن علامة تقاطع الطرق سوف تكشفه. وكان يخيل اليه ان كعب حذائه يوقّع اسمه علىٰ حافة الطريق وهو يمشي فوقها وان شرائح الجسر الخشبية علىٰ النهر كانت تعيد وقع اقدامه علىٰ نحو خاص بحيث بدت نغمة مألوفة يصعب تمييزها. عندما وصل الىٰ الطريق مرت بجانبه عربة قادمة من سان جان فتعرف الىٰ الحوذي حالاً ، انه فلاح من القرية تعرض لحادث في طفولته حيث دهسه جرار زراعي وفقد علىٰ الاثر ذراعه اليمنىٰ. تذكر انه والحوذي كانا يلعبان معاً في الحقول في اطراف سان جان عندما كانا صغيرين ولكن بعد تعرض الحوذي للحادث ومكوثه في المستشفىٰ اسابيع طويلة افترقا بسبب مشاعر الغيرة والاعتداد بالنفس. وعندما التقيا بعد فترة كان لقاؤهما لقاء عدوين وليس لقاء صديقين ولكن لم يكن في وسعهما استعمال السلاح نفسه كما يفعل المتبارزون، فكان هو يمتاز بالقوة بينما كان الولد المعوق لاذع اللسان بفعل آلام المرض ومعاناته في الفراش فترة طويلة.

تراجع شارلوت بضع خطوات الىٰ الوراء ووقف في خندق صغير الىٰ جانب الطريق عندما مرت العربة بجانبه وغطىٰ وجهه بيده ولكن سائق العربة روش لم يعره اي اهتمام، فقد كان يراقب الطريق

بعينين داكنتين متعصبتين وكأن ذلك الجذع العظيم المبتور دعامة حائط مهدم تقف حائلاً بينه وبين العالم. وأدرك شارلوت بعد حين ان الطرقات كانت تعج بالناس ولذلك فان احتمال إثارة الانتباه كان ضعيفاً. في كل انحاء فرنسا كان هناك رجال يعودون الى بيوتهم من معسكرات الاعتقال أو من مخابئهم أو من خارج البلاد. فلو اتيح لأنسان ان ينظر الى فرنسا من السماء لوجد حركة دائبة مستمرة لذرات صغيرة جداً كأنها ذرات غبار على سطح شبيه بخارطة.

انتابه شعور عارم بالراحة عندما رجع الى البيت كان كمن خرج من بلد مجهول وغير متحضر. دخل البيت من الباب الرئيس وسار على الممر الطويل باتجاه المطبخ وكأنه يعود ادراجه الى ثنايا كهف.

كانت تيريز مانجو تحرك ما في القدر فرفعت رأسها وقالت:

ـ طريقتك في دخول البيت من الباب الرئيس غريبة. لماذا لاتستخدم الباب الخلفي كما نفعل نحن. فمن شأن ذلك توفير جهد كبير في التنظيف.

ـ انا آسف ياآنستي، اظن ان السبب هو انني دخلت البيت أول مرة من ذلك الطريق.

لم تكن تعامله بوصفه خادماً. كان يبدو لها كأنه غجري نصب خيمته هناك حتى مجيء الشرطة وطرده. أما العجوز فقد كانت تنتابها بين الحين والآخر نوبات غضب وهيجان من غير سبب وكانت تقسم بانهم سيعيشون عندما يعود ابنها عيشة لائقة كما يعيش الاغنياء ويستخدمون خدماً حقيقيين لا أناساً مشردين جاءوا من قارعة الطرق. وفي مثل هذه الحالات كانت تيريز مانجو تبتعد كأنها

لم تسمع ماقالته امها ولكنها كانت توجه بعد فترة ملاحظات جارحة الى شارلوت وتسخر منه، وكانت هذه الملاحظات من النوع الذي يوجهه صديق الى صديق مستغلاً حرية التصرف في الشارع.

قال شارلوت لتيريز:

ـ لم يكن هناك الكثير في السوق. انه لأمر غريب ان نضطر الى شراء كميات كبيرة من الخضروات في وقت توجد هنا مثل هذه الحديقة الكبيرة. في السنة القادمة لن تضطري الى ذلك...

أخذ يعد المبلغ المتبقي لديه واضاف:

ـ اشتريت شيئاً من لحم الحصان. لم تكن هناك حتى ارانب في السوق. أظن ان المبلغ المتبقي صحيح ، من الافضل ان تعديه بنفسك.

فأجابته:

ـ انني اثق بك.

ـ أما والدتك فلا تثق. هذه قائمة المشتريات.

ناولها قائمة بالمشتريات واخذ ينظر الى كتفها وهي تعد المبلغ. فجأة توقفت عن قراءة القائمة وقالت:

ـ جان لوي شارلوت، ماأغرب هذا.

فادرك حالاً حقيقة مافعله. لقد وقع اسمه اسفل القائمة بشكل لايختلف كثيراً عن توقيعه على سند التنازل، وسألها:

ـ وفيم الغرابة؟

فقالت:

ـ استطيع ان اقسم بأنني اعرف خطك. لقد رأيته في مكان ما من

قبل.

ـ لابد انك رأيته في رسالة كتبتها.

ـ ولكنك لم تكتب اية رسالة.

ـ آه هذا صحيح.

شعر بجفاف في شفتيه واضاف:

ـ أين تظنين رأيت خطي؟

وانتظر كثيراً سماع جوابها وبعد فترة من الصمت قالت:

ـ لااعرف،اظن انه من تلك الحالات التي تمر بالانسان ويشعر فيها انه سبق ان زار مكاناً معيناً. ليس هذا مهماً.

(١٠)

في كل يوم تقريباً كان يطرق الباب طارق وهو إما متسول أو طالب عمل . وكان المتشردون يسيرون غرباً وجنوباً علىٰ غير هدى متجهين نحو الشمس والبحر ويبدو انهم كانوا واثقين بأن باستطاعة اي كائن ان يحيا علىٰ ساحل فرنسا الدافيء والرطب . كانت الفتاة تعطيهم بعض المال بدلاً من الطعام، اذ كان الطعام أندر من النقود وكانوا يعودون ادراجهم علىٰ الطريق المعشوشب المؤدي الىٰ النهر. لم يكن هناك استقرار في اي مكان وخصوصاً في بيت كبير كهذا ومع ذلك كان لدىٰ الفتاة وامها احساس قوي بالتملك.

كان لمدام مانجو حانوت صغير في پاريس أو الأحرىٰ انها كانت تمتلك البضائع الموجودة في الحانوت. وكانت تدير اعمالها بعناية

عدة سنوات بعد وفاة زوجها ولم تكن تبيع أو تشتري بالقروض وكان ربحها يكاد يكفي لسد الرمق . كان زوجها يحلم بمستقبل مشرق لابنائه ولذلك ارسل ابنته الىٰ مدرسة لتتعلم الضرب علىٰ الآلة الكاتبة وارسل ابنه الىٰ كلية فنية ولكن جانڤييه هرب من الدراسة وانسحبت تيريز بعد وفاة والدها. ولم تر مدام مانجو في المدارس سوىٰ مضيعة للوقت. والنتيجة الوحيدة التي حصلت عليها الفتاة من الاشهر العديدة التي قضتها في التدريب كانت آلة كاتبة مستعملة في الجزء الخلفي من حانوتها تستعملها لكتابة رسائل رديئة المحتوىٰ والاسلوب الىٰ تجار الجملة. لم يكن هناك مستقبل باهر ينتظر الحانوت غير ان مدام مانجو لم تهتم بذلك كثيراً ، فاستمرار الانسان بالبقاء هو النجاح بعينه في نظرها ، وتمكنها من الاستيقاظ كل صباح يعني انجازاً . والاهم من ذلك كله كان هناك ميشيل الذي تعقد عليه مدام مانجو أمالاً كبيرة . من يعلم كم حكاية من حكايات الجن نسجت من خيالها وجعلت ابنها الغائب الغامض بطل تلك الحكايات؟ فقد كان الامير الذي يلف العالم في حذاء زجاجي وراعي الغنم الذي يسرق عقل ابنة الملك وكان الابن الاصغر لامرأة عجوز ينجح في القضاء علىٰ الوحش العملاق. لم يخبرها احد بوفاة ابنها في السجن. وقد علم شارلوت بذلك تدريجياً ومن خلال الجمل الناقصة والنوبات العصبية التي كانت تنتاب مدام مانجو وحتىٰ من الاحلام التي كانت الامرأتان ترويها احداهما للأخرىٰ في الصباح علىٰ مائدة الافطار. أما قصة حصولها علىٰ الثروة فجأة فلم تكن رواية حقيقية لانه ليست هناك حقيقة مطلقة ولم يكن في وسع جيران مدام مانجو

في منيل مونتان ان يصدقوا ان حكاية شعبية معروفة كانت ترويها باستمرار يمكن ان تقع لها . استيقظت فجأة لتجد أمامها ثروة كبيرة. وهل هناك دليل اقوىٰ من ذلك علىٰ صحة احلامها؟ ومع ذلك فقد كانت تعلم جيداً انه حتىٰ في القصص التي لا تزال تذكرها من ايام طفولتها كان هناك شيء اسمه الذهب المزيف، ومن غير ان تعلم السبب كانت تشعر بالقلق ازاء كل شيء في هذا البيت، حتىٰ مائدة المطبخ والكرسي الذي كانت تجلس عليه كانا مصدر قلق لها. أما في بيتها في منيل مونتان فقد كان كل شيء يبعث علىٰ الطمأنينة اذ كانت تعلم اي الحاجات كان ثمنها مدفوعاً وأيها لم يكن. في حين هنا في هذا البيت وعلىٰ قدر علمها لم يكن هناك شيء مدفوع الثمن ولم تكن واعية ان الثمن سبق ان دفعه شخص آخر في مكان آخر وبطريقة مختلفة.

شغل شارلوت غرفة في أعلىٰ الدار كانت مخصصة سابقاً لرئيس الخدم . كانت غرفة صغيرة تحت سقف مائل وفيها سرير ذو مسند حديدي وكان هناك دولاب صغير ذو ادراج مصنوعاً من الخيزران . وهو دولاب مهلهل بخلاف بقية الاثاث في البيت الذي كان جميعه ثقيلاً ومصنوعاً لكي يستخدم فترة طويلة . كان هذا الجزء من البيت هو الجزء الوحيد الذي لم يسبق له ان رآه من قبل، فعندما كان طفلاً كان محظوراً عليه ان يصعد الىٰ الجزء العلوي من البيت لاسباب غريبة كانت تستند الىٰ حاسة امه وتتعلق علىٰ مايبدو بالاخلاق والنظافة. هناك في اعلىٰ البيت حيث لااثر للسجاد وبعيداً عن منطقة الحمام والمرافق كانت حقائق الحياة المادية تترصده كأنها خطر

مجهول. مرة واحدة فقط تجرأ وتسلل الى المنطقة المحظورة على رؤوس اصابعه ولم يكن قد تجاوز السادسة من عمره . اقترب من غرفة النوم التي ينام فيها هو حالياً ونظر من خلال الباب فرأى الخادمة العجوز التي ورثها ابواه وكانا يسميانها مدام وارنييه احتراماً وتقديراً لها. كانت العجوز ترتب شعرهااو الاحرى تخلع شعرها، كانت ترفع خصلات كبيرة من الشعر الكستنائي الفاتح الشبيهة بالاعشاب البحرية الجافة وتضعها على المزينة. كانت تنتشر في الغرفة رائحة شبيهة ببخار كريه منبعث من مستنقع. بعد ذلك الحادث بقي شارلوت اكثر من سنة كاملة يعتقد ان كل انواع الشعر الطويل هي مثل شعر الخادمة أو بعبارة اخرى قابلة للفصل.

ذات ليلة لم يستطع النوم واخذ يسير في الطريق الخفي نفسه الذي سار فيه عندما كان طفلاً ولكن في الاتجاه المعاكس، وكان يبحث عن ماء يشربه. كان سلم الخدم يصر تحت اقدامه ولكن صريره لم يعنِ شيئاً هذه المرة على خلاف خطواته وهو في طريقه الى بريناك بل انها كانت بمثابة كتابة هيروغليفية جديدة لمّا يتعلم احد قراءتها بعد. لم يكن يشغل الغرفة احد لأنها ربما كانت لاتزال تحمل اثار بقائه فيها على نحو واضح جداً . دخل الغرفة فوجدها على ماكانت عليه تماماً عندما غادرها قبل اربع سنوات . سحب احد الادراج فوجد رزمة من الياقات المنشّاة وقد اصفر لونها اصفرار بردي مهجور. كانت صورة أُمه في اطارها الفضي لاتزال فوق خزانة الملابس. كانت حول عنقها ياقة عالية تعرف باسم عظم فك الحوت وعلى وجهها تعبير ينم عن الهدوء التام وتحدق الى مشهد لم يتغير

قط. لم يكن للموت أو التعذيب أو الضياع اي اثر في رقعة الحائط الصغيرة التي تقابل عينيها، بل كانت كبقية الحائط مغلفة بورق جدران مزين بغصينات الورد وكان الورق من اختيار حماتها. كانت هناك صورة مرسومة بقلم الرصاص فوق احد هذه الغصينات، انها صورته وهو في الرابعة عشرة من عمره وكانت تحتوي علىٰ اشياء لم يعد يذكرها الآن ، منها ذلك الشعور الرومانسي الغامض الذي ينتاب الانسان عند وصوله سن البلوغ أو ربما احساس بالحب والالم كان يعتقد انه سيبقىٰ معه طوال حياته.

نظر الىٰ الوراء فوجد تيريز مانجو واقفة علىٰ عتبة الباب تراقبه. ما ان رآها حتىٰ تذكرّ الماضي وكأنه أوصل سلكاً مقطوعاً فأخذ صوت منسي منذ ثلاثين عاماً ينطق من جديد.

سألته بحدة:

- ماذا تفعل هنا؟

كانت ترتدي مِبذلاً سميكاً ذا حزام حبلي كالذي يرتديه الرجال.

- لم استطع النوم فنزلت لأشرب ماءً وقد سمعت مابدا لي صوت فأر في هذه الغرفة.

- أوه، كلا، لم نجد اي فأر في هذا البيت منذ عدة سنين.

- لماذا لاتتخلصون من كل هذه الاشياء؟

تقدمت نحوه وهي تسحب خلفها المبذل السميك وقالت:

- ان لمس هذه الاشياء يجعل الانسان يشعر بالغثيان، اليس كذلك؟ ولكنني مع ذلك سأتخلص منها جميعاً حتىٰ الباقات.

جلست على السرير. لم يجد شارلوت تفسيراً لسؤال خطر في ذهنه،

كيف يمكن لانسان بمثل عمرها الفتي ان يكون متعباً، ومع ذلك يبقىٰ مستيقظاً.

فقالت:

ـ يالها من مسكينة!

ـ اليس أفضل لو انها عرفت الحقيقة؟

ـ لم أقصد أُمي، بل قصدت تلك الموضوعة صورتها هناك. فلو كنت انا امه لما كان لدي الكثير لأفتخر به، اليس كذلك؟

أول مرة منذ وصوله الىٰ البيت وجد نفسه مضطراً الىٰ الاحتجاج على كلامها فقال:

ـ اظن انك على خطأ. فقد كنت اعرفه اما انت فلم تعرفيه. صدقيني لم يكن انساناً سيئاً الىٰ هذه الدرجة كما تظنين.

فقالت:

ـ ياالهي!

ـ صحيح انه تظاهر بالجبن، ولكن كل واحد منا معرض لأن يلعب دور الجبان ولو مرة واحدة. اغلب الناس يفعلون ذلك ، بيد انهم يتناسون انهم فعلوه، ولكن بالنسبة اليه كانت المرة الواحدة تلك مثيرة للانتباه الىٰ هذا الحد.

فقالت له:

ـ لااظن انك ستقول ايضاً انه لم يكن محظوظاً. صحيح ان كل انسان معرض لأن يفقد شجاعته ويصبح جباناً وعلى المرء ان يفكر في ذلك طوال حياته، فقد يحدث ذلك الشيء اليوم.

كان واضحاً انها أطالت التفكير في هذا الموضوع كثيراً ، وانها

كانت تصرح بالنتيجة التي توصلت اليها حتىٰ يسمعها الجميع . واضافت قائلة:

ـ وعندما يحدث لك ذلك الشيء ستعرف حقيقة نفسك.

لم يكن لديه مايقوله. فكان الامر يبدو له صحيحاً. سألها بمرارة:

ـ هل حدث لك شيء كهذا؟

ـ ليس بعد، ولكن سيحدث.

ـ اذن اظن انك لاتعرفين حقيقة نفسك حتىٰ الآن، فقد لا تكونين افضل منه.

التقط ياقة صفراء ولفها حول رسغه بعصبية . فأجابته:

ـ ولكن هذا لايعني، بأي شكل من الاشكال، انه افضل مني. فاذا كنتُ قاتلة هل يجب ان اتظاهر بأن بقية القتلة...؟

قاطعها قائلاً:

ـ يبدو ان لديك اجابة جاهزة لكل شيء، اليس كذلك؟ فلو كنت رجلاً لنجحت في مهنة المحاماة ولكن مع فارق واحد وهو انك تصلحين ان تكوني ممثلة للادعاء افضل من ان تكوني محامية عن متهم. فاجابته بجد:

ـ لااريد ان اكون محامية. لقد كان هو محامياً.

ـ ما أشد ماتكرهينه؟

فقالت:

ـ انني اكرهه كرهاً عظيماً مستمراً استمرار الليل بعد النهار. انه كتلك الرائحة النتنة التي لايمكنك ان تتخلص منها لان هناك جثة تحت خشب الارضية. تعلم انني لم اعد اذهب الىٰ القداس، بل اترك

والدتي في الكنيسة واعود ادراجي. لقد سألتني عن السبب فقلت لها انني فقدت ايماني. انه لامر تافه ويمكن ان يحدث لاي انسان، والله لايهتم كثيراً بالشخص الذي يفقد ايمانه. انه مجرد حماقة والحماقة شيء جيد.

كانت تبكي ولكن في عينيها فقط. يبدو انها كانت مسيطرة على كل شيء ماعدا آلية قنوات الدموع. واضافت تقول:

ـ يستطيع بعض الناس التخلص من حقدهم وتركه ساعة عند باب الكنيسة ومن ثم التقاطه وقت الخروج. اما انا فلا استطيع وكم أتمنى لو استطيع ان افعل مثلهم.

وضعت يديها على وجهها وغطت عينيها كما لو انها كانت تشعر بالعار من اظهار ألمها.

وقال شارلوت لنفسه: «كل هذا بسببي انا».

ـ وقال لها مكتئباً:

ـ انك واحدة من اولئك التعساء الذين يؤمنون.

فقامت من السرير وقالت:

ـ وما فائدة الكلام. اتمنىٰ لو اجده امامي وبيدي بندقية.

ـ وهل لديك بندقية؟

ـ نعم.

ـ واعتقد انك ستذهبين الىٰ الكنيسة بعد قتله وستعترفين وستكونين سعيدة مرة أخرى.

ـ ربما، لااعرف، لااستطيع ان اذهب بعيداً بافكاري.

فقال لها:

ـ انتم الطيبون اناس مرعبون. تتخلصين من حدقك كما يتخلص الرجل من شهوته.
ـ اتمنى لو كان الامر كذلك لنمت على نحو افضل ولما كنت متعبة ومتقدمة في العمر الى هذه الدرجة.
واضافت بنبرة جادة:
ـ ولكان الناس يحبونني ولما خشيتهم بعد ذلك.
شعر بانه يقف امام حطام، ليس حطاماً قديماً اكسبه تقادم العهد غشاء العتق ولكنه حطام جديد لايزال ورق الجدران عالقاً فيه ولايزال صدعه مفتوحاً يظهر من خلاله الموقد والكرسي. قال لنفسه: «ليس هذا عدلا. ليس هذا ذنبي ، فانا لم اطلب حياة انسانين مقابل حياتي وانما حياة جانفييه فقط.»
فقالت تيريز:
ـ يمكنك ان تأخذ تلك الياقات اذا كانت تنفعك ولكن احذر الا تعرف امي ذلك . هل هي على مقاسك؟
فأجاب بحذره المعتاد:
ـ تقريباً.
ـ سوف آتيك بقدح من الماء.
ـ ولماذا انت؟ انا الخادم هنا.
وأجابته:
ـ لم يعتد افراد عائلة مانجو ان يجروا الى الخدم. على اية حال اريد ان اتمشى قليلا. لقد جفاني النوم.
ذهبت وعادت وبيدها قدح الماء. وقفت امامه وهي ترتدي المِبذل

السميك وتمسك بيدها القدح. نظر اليها فادرك بالغريزة ماقصدته من تصرفها. تكلمت كثيراً عن حقدها والآن كانت تحاول ان تقول له من خلال تصرفها هذا انها تتمتع بصفات أخرى ايضاً غير الحقد. كانت تريد ان تقول انها يمكن ان تكون صديقة ويمكن ان تكون رقيقة. وعندما عاد الى فراشه ثانية في تلك الليلة وجد ان ليأسه صفة أخرى مختلفة، فلم يعد يائساً لعدم توفر اسباب الرزق له وانما كان يائساً من الحياة نفسها.

(١١)

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي كانت تفاصيل ماجرى، وحتى تفاصيل عواطفه، غامضة ومبهمة في نظره. كان كل شيء بضع لحظات على ماكان سابقاً ولكنه عندما وضع يده على مقبض باب المطبخ وسمعها تحرك الاواني في الداخل شعر بقلبه المتعب يرسل من تحت اضلعه اشارة لاتخطىء. سار بخطوات مستقيمة وخرج من البيت محاولاً ترتيب افكاره وعندما وصل الى الرقعة الصغيرة المزروعة في الحديقة نطق بصوت عال وجهر بمشاعره: احبها. قالها فوق الرقعة المزروعة بالكرنب وكأنها العبارة الاولى في قضية معقدة ولكن هذه القضية لا نهاية لها في رأيه.

سأل نفسه: «الى اين سنذهب من هنا ؟» وبدأ ينظر الى المسألة بعقلية محامٍ واخذ يفصل خيوط القضية وشعر ببعض التشجيع.

كان يعلم جيداً من خلال خبرته القانونية الطويلة انه ليس هناك قضية لاتنطوي على بصيص من امل. واخذ يحاجج نفسه: «بعد كل هذا ليس هناك من مسؤول عن موت جانقييه سوىٰ جانقييه نفسه. ليس لي ذنب في الموضوع بغض النظر عن مشاعري. يجب الا ينجرف المرء وراء مشاعره والا واجه المقصلة اناس ابرياء كثيرون» . واستمر يفكر: ليس هناك اي قانون يمنعه من ان يحبها، لا سبب البتة سوىٰ حقدها الذي يحول دون حبها إياه . لو كان يستطيع ان يستبدل الكراهية بالحب لقدم لها بذلك خدمة تعوضها عن كل شيء. كان يفكر وكأنه يقرر مسائل الخير والشر بطريقة رائعة. كان يعتقد بسذاجة انه يمنحها امكانية الخلاص. التقط حصاة ورماها باتجاه احدى الكرنبات البعيدة فتدحرجت فأصابت هدفها اصابة دقيقة فتنهد تعبيراً عن الارتياح. لقد خفض التهمة الموجهة الىٰ نفسه الى جريمة مدنية يمكن تسويتها عن طريق التعويض واصبح بوسعه الآن ان يساوم على شروط هذا التعويض . استغرب امر نفسه وتساءل عن السبب الذي دعاه الىٰ الشعور باليأس ليلة امس. ليس الوقت وقت يأس، بل إنه مناسبة للامل. لقد وجد شيئاً يعيش من اجله ، ولكن بقيت هناك بعض الظلال في قاع تفكيره كأنها دليل تعمدّ عدم تقديمه الىٰ المحكمة.

في صباح اليوم التالي تناولوا الخبز والقهوة مبكراً ليتسنىٰ لهم الذهاب الىٰ السوق في بريناك. كانت مدام مانجو في اسوأ حالاتها. حقاً، انها وافقت على وجوده في البيت ولكنها بدأت تعامله بالطريقة التي تصورت سيدة عظيمة ينبغي ان تعامل بها خادمها.وكانت تعبر

عن استيائها من وجوده في اوقات الطعام. واصبحت تعتقد جازمة انه كان يعمل خادماً لدى ابنها ميشيل وان ابنها سيعود يوماً وسيشعر بالعار والخجل لانها لم تنجح في التكيف مع حياة الاغنياء.

لم يهتم شارلوت بذلك كثيراً فقد كان يشارك تيريز مانجو سراً معيناً، وعندما تلاقت عيناهما شعر انها تبادله الألفة والمودة ولكنه لم يقل لها عندما اصبحا وحدهما سوى:

- هل لي ان اشتري لك شيئاً من السوق؟ اعني ، شيئاً لك. فأجابت.

- كلا، لااحتاج الى شيء. على اية حال ماذا يمكن ان تجد في بريناك؟

- لماذا لاتأتين بنفسك، سينفعك المشي والهواء الطلق. لم تخرجي منذ فترة طويلة.

- قد يأتي احدهم عندما اكون بعيدة عن البيت.

- قولي لامك الا تفتح الباب لاي انسان، ولا اظن ان احداً سيدخل البيت عنوة.

- قد يأتي هو.

- قال لها مناشداً، اسمعي، انك تقودين نفسك الى هاوية الجنون. انك تتصورين اشياء لاوجود لها. لماذا يأتي الى هنا ويعرض نفسه للتعذيب برؤية الاشياء التي كانت له وتخلى عنها بنفسه. ستصابين بالمرض بسبب هذا الوهم.

تخلت عن جزء من خوفها بعد شيء من التردد وكأنها طفل يعرض الجزء المكسور للعبة الرسم المنقول بالاحتكاك وقالت:

- الناس في القرية لايحبونني بل يحبونه.

ـ لن نذهب الى القرية.
فاجأته بسرعة استسلامها وقالت:
ـ اوه حسناً، فليكن كما تشاء، سوف اذهب معك.

ضباب خريفي انتشر في الجو ببطء من ناحية النهر . وتحت اقدامهما شعرا برطوبة قطع الجسر الخشبية-كانت الاوراق الصفر منتشرة في كل مكان . اشكال فقدت الوانها وكأن عمرها مائة عام. كان كلاهما يعرف انهما جزء من مسيرة طويلة ومبعثرة متجهة نحو سوق بريناك ولكنهما في هذا الشريط من الطريق وبين طيات الضباب كانا وحيدين كأنهما في غرفة مغلقة. لم يتكلما وقتاً طويلاً، وكان وقع اقدامهما عندما تختلف خطاهما هو الحوار المتقطع الوحيد بينهما. كانت قدماه تسيران بثبات كأنهما حجج محام متجهة الى هدف معين. اما خطواتها فكانت غير منتظمة واشبه بصيحات دهشة واستغراب . خطر بباله ان المستقبل الذي كان يحلم به يحتوي على الكثير مما يعيشه الآن ، وبدا له غريبا كيف ان الحياة اخذت تقلد نوع المستقبل الذي كان له الحق ان يتوقعه ولكنه كان تقليداً قريباً وبعيداً في الوقت نفسه. لو كان قد تزوج واتى بزوجته الى سان جان لربما كانا سيمشيان معاً هكذا وبصمت باتجاه السوق في يوم خريفي جميل. قادتهما الطريق نحو تلة صغيرة ترتفع بضعة اقدام عن سطح الارض فخرجا من الضباب مؤقتاً. كان يمتد امامهماحقل طويل رمادي اللون ينتشر على جانبي الطريق. كانت هناك احجار صغيرة تومض كحبيبات من جليد. طار طير كان يمشي على الارض وابتعد مصفقاً بجناحيه. مرة أخرى انحدرا الى اسفل التلة بين

حيطان من ضباب وهمية . استمرت خطواتهما في حوار لاجواب له.
سألها:
- هل انت متعبة؟
- كلا.
- اشعر بشعور غريب لأنني امشي بخط مستقيم بدلاً من الصعود والنزول.

لم تجبه وارتاح لصمتها، ليس هناك شيء اكثر صميمية من الصمت وكان يشعر لو انهما بقيا صامتين فترة أخرى فسيسوى كل شيء بينهما.

لم يجر بينهما حديث آخر الى ان وصلا قرب بريناك فقال لها:
- لنسترح قليلاً قبل الدخول الى السوق.

استندا الى باب احد الحقول وخففا الضغط عن اقدامهما. سمعا صوت طقطقة عربة تقترب من بعيد من ناحية سان جان. كان روش الذي ابطأ عربته عندما اقترب منهما وسألهما:
- هل تريدان ان اوصلكما؟

كان يتكلم وهو ينظر الى اليسار حيث اعتاد ذلك ليخفي الجهة اليمنى من وجهه وقد تركت هذه العادة شيئاً من الكبرياء المصطنعة في وجهه. كان اسلوبه يوحي بانه يخيرهما بين ان يقبلا عرضه او يتركاه. هزت تيريز مانجو رأسها بالنفي. فسألها:
- انك الآنسة مانجو، اليس كذلك؟ لست بحاجة الى ان تذهبي الى بريناك مشياً على الاقدام.
- اردت ان اتمشى قليلاً.

فقال روش:

ـ ومن هذا؟ هل هو خادمكم. لقد سمعنا عنه في بريناك.

ـ بل انه صديق لي.

وقال روش:

ـ انتم الپاريسيون عليكم ان تكونوا اكثر حذراً. انكم لاتعرفون الريف جيداً، هناك الكثير من الشحاذين في الوقت الحاضر والافضل ان يتركهم المرء يتسولون.

فقالت تيريز بتجهم:

ـ ماكثر ما تمارسون القيل والقال في الريف!

ـ وخاطب روش شارلوت قائلاً:

ـ وانت، انك قليل الكلام، اليس لديك ماتقوله عن نفسك؟ هل انت پاريسي ايضاً؟

فقالت تيريز مانجو:

ـ كأنك من رجال الشرطة.

فأجابها روش:

ـ انا من رجال المقاومة ومن واجبي ان اتحرىٰ حقيقة الامر.

ـ لقد انتهت الحرب بالنسبة الينا، اليس كذلك؟ ولم يعد لديك ماتفعله.

ـ أبعدي هذا التفكير عن رأسك، فعملي الحقيقي قد بدأ الآن...

واضاف مخاطباً شارلوت:

ـ أرني اوراقك.

ـ وماذا لو لم افعل؟

ـ سيأتيك احدنا الىٰ البيت.
فقالت تيريز مانجو.
ـ أره اوراقك.
اضطر روش الىٰ ان يترك عنان الفرس حتىٰ يأخذ الاوراق فتحركت الفرس قليلاً بعد ان شعرت بالحرية. وفجأة بدا رُوش غريبا لاحول له ولا قوة كأنه طفل وضعت على عاتقه مسؤولية السيطرة على الفرس فلم يستطع فقال لشارلوت:
ـ خذ اوراقك.
وأمسك بالزمام ثانية.
فقال له شارلوت بطيبة مدروسة تنم عن اهانة:
ـ سوف أمسك بالفرس اذا شئت.
ـ الافضل لك ان تحصل على اوراق اصولية. هذه ليست قانونية.
التفت الىٰ تيريز مانجو وقال:
ـ عليك ان تكوني حذرة. هناك الكثير من الاسماك الغريبة التي تختبيء هذه الايام. يبدو لي انني رأيت هذا الشخص في مكان ما من قبل. اقسم انني رأيته.
ـ انه يأتي الىٰ السوق كل اسبوع. ربما رأيته هناك.
ـ لااعرف.
فقالت تيريز مانجو:
ـ لااظنك تبحث عن مشاكل. فهذا الرجل سجله نظيف. انا اعرف انه كان مسجوناً في احد سجون الالمان. كان يعرف ميشيل.
ـ لابد اذن انه كان يعرف شاڤيل ايضاً.

ـ نعم.

حدق روش الىٰ وجهه وقال:

ـ غريب ألهدا ظننت انني رأيته سابقاً. انه يشبه شافيل نفسه بعض الشيء . الصوت نفسه ولكن الوجه مختلف تماماً.

قال شارلوت بهدوء وهو يسأل نفسه عن المقطع الذي فضحه:

ـ لو قدر لك ان تسمعه الآن لما قلت ان صوتي يشبه صوته. لقد كبر كثيراً واثر فيه السجن تأثيراً بالغاً.

ـ لا أشك في ذلك. فقد كان يعيش حياة ناعمة.

وقالت تيريز مانجو:

ـ اظن انه كان صديقك. فالجميع في سان جان اصدقاؤك.

ـ انك علىٰ خطأ من يعرفه لايقبل صداقته كان حتىٰ في طفولته حقيراً ووقحاً وجباناً يخشىٰ الفتيات.

واضاف روش ضاحكاً:

ـ كان يثق بي اذ كان يتصور انني صديقه الىٰ ان وقعت لي هذه الحادثة فلم يعد يطيقني بعد ذلك لانني اصبحت اكثر حكمة منه. عندما يلازم الانسان فراش المرض عدة اشهر فانه أما ان يصبح حكيماً او يموت. استطيع ان اتذكر الآن بعض ماكان يقوله. كانت هناك فتاة في مطحنة القرية يحبها....

يالغرابة الاشياء التي يمكن ان ينساها الانسان. هل كان روش يقصد صاحبة ذلك الوجه الذي رسمه ذات مرة باسلوب يفتقر الىٰ الخبرة علىٰ ورق الجدران؟ لم يكن يذكر اي شيء.

قال روش:

ـ كانت كل شيء عنده ولكنه لم يجرؤ ان يفاتحها ولو مرة واحدة. كان في الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من العمر، كان جباناً بمعنىٰ الكلمة.

ـ لماذا يحبونه في القرية اذن؟

اجاب روش:

ـ اوه، لا أحد يحبه. المسألة باختصار هي ان احداً لم يصدق روايتك. لم يكن في وسع احد ان يصدق ان هناك انساناً يمكن ان يموت من اجل المال كما فعل اخوك. وظنوا ان الامر قد التبس حتماً علىٰ الألمان بشكل ما.

استقرت عيناه المتحمستان الداكنتان علىٰ وجهها واضاف:

ـ اما انا فاستطيع ان اصدق كل شيء. لقد فعل ذلك من اجلك انت.

ـ اتمنىٰ لو استطعت اقناعهم بهذا الكلام.

فسألها روش:

ـ وهل سبب لك أحد اية مشاكل؟

ـ لااظن ان المسألة هي مسألة ماتسميه بالمشاكل. لقد حاولت ان اكون صديقة لهم ولكنني اكره ان يصرخ احد في وجهي. كانوا يخشون ان يفعلوه هم بانفسهم فعلّموا اطفالهم.

ـ الناس كثيرو الشكوك هنا.

ـ ان يأتي شخص من پاريس لايعني انه كان متعاوناً مع العدو.

فقال روش:

ـ كان عليك ان تأتي اليّ اولاً.

فنظرت تيريز الىٰ شارلوت وقالت:

ـ لم نكن نعرف ان هناك مسؤولاً كبيراً بقربنا، أليس كذلك؟

رفع روش سوطه وهوىٰ به علىٰ ظهر الحصان فابتعدت العربة وبدأت تختفي شيئاً فشيئاً، وبدت ذراع روش المبتورة واضحة مع استدارة العربة وكانت تبدو من خلال كمه الملفوف في اعلىٰ الساعد وكأنها هراوة خشبية.

عاتبها شارلوت برقة وقال:

ـ خلقت لك عدواً جديداً.

فقالت:

ـ انه ليس سيئاً الىٰ هذه الدرجة.

واخذت تتابع العربة بعينيها فترة طويلة جعلت شارلوت يحس بأول وخزة من وخزات الحسد فقال:

ـ الافضل ان تحذري منه.

ـ تقولها وكأنك تعرفه. لم تكن تعرفه من قبل، أليس كذلك؟ يبدو انه كان يعرفك...

فقاطعها شارلوت قائلاً:

ـ انا اعرف هذا الصنف، هذا كل مافي الامر.

(١٢)

في الليل عندما عادا الىٰ البيت من بريناك تصرفت تيريز مانجو بطريقة غير مألوفة. فقد اصرت علىٰ ان يتناولوا الطعام مستقبلاً في غرفة الطعام وليس في المطبخ حيث اعتادوا ان يتناولوا فيه جميع

وجباتهم علىٰ عجل كما لو كانوا مهيأين في أية لحظة لمجيء مالك البيت الحقيقي للمطالبة بحقوقه مرة اخرى. لم يكن في وسع شارلوت ان يخمن ماغيّرها لكنه ربط في مخيلته بين هذا التغيير واللقاء الذي تم في الطريق الىٰ بريناك. ربما ادىٰ الهجوم الذي شنه الفلاح علىٰ شاڤيل الىٰ زيادة ثقتها بنفسها وجعلها تعتقد ان هناك رجلاً في سان جان مستعد للوقوف في وجهه دفاعاً عنها.

قال شارلوت:

ـ الغرفة بحاجة الىٰ التنظيف.

واخذ المكنسة وتوجه نحو السلالم فاوقفته الفتاة وقالت:

ـ لم نستعمل الغرفة من قبل قط.

ـ صحيح؟

ـ لقد ابقيت الباب مقفلاً. انها من ذلك النوع من الغرف التي كان يتبختر فيها ويتباهىٰ بها. انها غرفة أنيقة. هل تستطيع ان تتصوره جالساً فيها يشرب نبيذه ويضغط علىٰ الجرس طالباً الخدم...

فقال لها:

ـ كلامك يشبه رواية رومانسية.

وتحرك باتجاه السلم.

ـ اين ستذهب؟

ـ لالقي نظرة سريعة علىٰ الغرفة.

ـ ولكن كيف تعلم اين هي؟

كان وقع السؤال عليه كمن وضع قدمه علىٰ سلم وهمي. شعر بقلبه يخفق بسرعة اثر الصدمة. لقد كان حذراً طوال هذه الايام

متظاهراً بأنه يجهل التفاصيل كافة وموقع كل غرفة او دولاب.
- فيم افكر؟ كنت اصغي اليك فعلاً.
ولكنها لم تقتنع وراقبته عن كثب وقالت:
- احياناً يبدو لي انك تعرف هذا البيت أفضل مني.
- سبق لي ان عشت في مثل هذا الطراز من البيوت. انها متشابهة جميعاً.
- هل تعرف ماافكر فيه؟ ربما كان شافيل يفاخر بهذا البيت في السجن ويرسم صوراً عنه الىٰ ان عرفت...
- كان يتكلم عنه كثيراً.

فتحت باب الغرفة ودخلاها معاً. كانت النوافذ موصدة والغرفة غارقة في ظلام. تخبط بحذر فترة طويلة قبل ان يعثر علىٰ زر المصباح. هذه اكبر غرفة في البيت وفيها طاولة طويلة مغطاة بغطاء من القماش كأنها نعش ممدد وسط الغرفة وعلىٰ الجدران علقت صور افراد عائلة شافيل الذين فارقوا الحياة.

كان افراد العائلة يمتهنون المحاماة منذ القرن السابع عشر عدا بعض الثواني والثوالث من الابناء الذين عملوا في الكنيسة من بينهم اسقف ذو انف طويل معقوف علقت صورته بين نافذتين ، وكان الانف الطويل يتبعهم من حائط الىٰ حائط ومن صورة الىٰ اخرىٰ.
علقت تيريز قائلة:
- اية مجموعة هذه! يبدو انه لم تكن لديه اية فرصة ليصبح مختلفاً عنهم.

رفع انفه الطويل ونظر الى وجه جده ، حدق الرجل المرتدي رداء

المحاماة الى الرجل المرتدي صداراً من قماش البيز الاخضر.فأشاح ببصره عن العينين اللتين توحيان بالعجرفة والاتهام .

فكررت الفتاة مرة اخرىٰ:

ـ اية مجموعة هذه، ومع ذلك يتزوجون وينجبون الاطفال.

هل يمكنك ان تتصورهم يمارسون الحب؟

ـ كل انسان يمر بذلك.

ضحكت وكان اول مرة يسمع ضحكتها. كان يراقبها بشرهٍ كقاتل ينظر الىٰ ضحيته علىٰ أمل ان تعود اليه علامة من علامات الحياة حتى لا يدان بارتكاب الجريمة.

سألته تيريز:

ـ كيف يعرضون شيئاً مثل ذلك في اعتقادك؟ هل كانوا يتنفسون من تلك الانوف الطويلة ؟ هل تعتقد انهم كانوا يستطيعون البكاء بواسطة عيون المحامين هذه؟

مد يده ولمس ذراعها قائلاً:

ـ اظن انهم كانوا يعرضونه هكذا...

وفي تلك اللحظة رن جرس الباب وارتج سلكه المعدني الطويل. فتساءل:

ـ أهو روش؟

ـ وما عساه ان يريد؟

ـ لاشك في انه وقت متأخر بالنسبة الىٰ الشحاذين.

فأجابته لاهثة:

ـ ربما يكون روش.

مرة اخرىٰ سمعا صوت ارتجاج السلك المعدني الطويل قبل ان يرن صوت الجرس. قالت:

ـ اذهب وافتح الباب والاّ ستفتحه امي.

انتابه قلق يشبه قلق من يسمع صوت الجرس في منتصف الليل. تحرك مرتعباً ونزل السلم محدقاً الىٰ الباب.كان خوفاً موروثاً تراكم منذ سنين وساهم في تكوينه تاريخ وتجارب امدها مئات السنين من جرائم قتل وقصص ثورات وحروب . مرة اخرى رن الجرس وكأن الرجل الواقف عند الباب علىٰ عجلة من امره لدخول البيت او ان له حقاً يخوله الدخول. ولم يكن في وسعه ان يخمن من بالباب، فالهارب ومن يطارده كلاهما يطرق الابواب بهذه الطريقة.

وضع شارلوت السلسلة المعدنية وفتح الباب بضعة انجات فقط . لم يرَ شيئاً في الخارج سوىٰ ضوء خافت وقد انعكس علىٰ شريط ياقة رجل لم يتبينه. تحركت قدم علىٰ الحصىٰ واحس بضغط علىٰ الباب وعلىٰ السلسلة المعدنية.

سأل شارلوت:

ـ من انت؟

فأجابه الغريب بلهجة مألوفة ولكن غريبة:

ـ أنا جان لوي شافيل.

الرجل العاشر

الجزء الثالث

(١٣)

ـ مَنْ؟

فأجاب الصوت بثقة متزايدة وبلهجة آمرة:

ـ شافيل، هل تسمح ان تفتح الباب، يا زميلي وتدعني ادخل؟

فسألت الفتاة وهي واقفة في منتصف السلم:

ـ من هناك؟

شعر شارلوت برغبة جامحة في صدره واجابها بفرح وارتياح يشوبهما شيء من الخوف:

ـ شافيل، يقول انه شافيل .

وقال لنفسه: «واخيراً استطيع ان اقول انني شارلوت حقيقة وان هناك شخصاً اخر ستصب عليه حقدها».

قالت:

ـ دعه يدخل.

رفع شارلوت السلسلة من الباب . دخل الرجل وشعر شارلوت انه ليس غريباً عليه شأنه شأن صوته لكنه لم يستطع ان يميزه. كان طويل القامة قوي البنية توحي ملامحه بالفظاظة والخشونة ربما كان ذلك بسبب التباهي المبتذل الذي يصطنعه. اما مشيته فكانت توحي بالمرح.كان ابيض اللون وقد وضع على وجهه وجسمه

كمية من المساحيق، وصوته يشبه صوت مغن : يبدو انه كان واعياً سبل تنغيم صوته وقدرته على عزف ما يعجبه من الانغام. وتكلم مخاطباً الفتاة:

ـ سيدتي العزيزة، ارجو ان تغفري لي دخولي عليك هكذا.

توجهت انظاره نحو شارلوت فتوقف عن الكلام فجأة . يبدو انه ايضا عرفه ، او ظن انه يعرفه .

سألته تيريز:

ـ ماذا تريد؟

رفع عينيه عن شارلوت على مضض وقال:

ـ مكاناً الجأ اليه وشيئاً من الطعام.

فقالت تيريز:

ـ وهل انت حقاً شاڤيل؟

أجابها بلهجة غير واثقة:

ـ نعم نعم، انا شاڤيل.

نزلت من السلم وعبرت الصالة متجهة اليه وقالت:

ـ كنت اعرف انك ستأتي يوماً.

مد يده كأنه لايستطيع تصور حدوث شيء غير اعتيادي وقال:

ـ سيدتي العزيزة...

فبصقت في وجهه بقوة.

كانت تنتظر هذه اللحظة منذ عدة شهور والآن وقد تم لها ماارادت وانتهى كل شيء بدأت تبكي كأنها طفل يبكي في نهاية حفلة لايريد الاقرار انها انتهت فعلاً.

قال له شارلوت:

ـ لماذا لا تعود من حيث اتيت؟

مسح الرجل المدعو شاقيل وجهه بكمه وقال:

ـ لااستطيع، انهم يبحثون عني.

ـ لماذا؟

كل من له خصم في اي مكان يعد من المتعاونين مع الألمان.

ـ ولكنك كنت سجيناً لدىٰ الألمان.

فأجاب الرجل بهدوء:

ـ يقولون انني وُضعت هناك لأقوم بمهمة المخبر.

يبدو ان سرعة بديهته اعادت اليه الثقة بالنفس واحترام الذات وقال للفتاة بتأنٍ:

ـ لاشك في انك الآنسة مانجو. اعرف انني ارتكبت خطأ بمجيئي الىٰ هنا ولكن الحيوان المطارد يتجه اولاً الىٰ الارض التي يعرفها. ارجو ان تغفري لي قلة ذوقي، آنستي. ساغادر حالاً.

قال شارلوت:

ـ نعم من الافضل ان تغادر حالاً.

استدار الرجل بوجهه الابيض المغطىٰ بالمساحيق ونظر الىٰ شارلوت. كانت شفتاه جافتين فرطبهما بطرف لسانه. وكان خوفه هو الشيء الوحيد الذي كان يبدو حقيقياً فيه ولكنه نجح في السيطرة عليه تماماً مثل حصان وحشي امتطاه فارس ماهر. لم تظهر علامات الخوف الا علىٰ فمه وعينيه وقال:

ـ عذري الوحيد انني احمل رسالة الىٰ الآنسة من اخيها.

لم يتراجع امام نظرات شارلوت المتواصلة والفضولية وقال له

ـ اظن انني اعرفك.

فنظرت الفتاة الى الاعلى وقالت:

ـ لابد انك تعرفه. كان في السجن نفسه.

مرة اخرى لم يجد شارلوت بدأ من الاعجاب بمدى سيطرة الرجل على اعصابه، اذ قال بهدوء:

ـ آه، اظن انني بدأت اتذكر. لقد كنا مجموعة كبيرة في السجن.

فسألت الفتاة شارلوت:

ـ هل هذا شافيل حقاً؟

كان الخوف مايزال مسيطراً على الرجل ولكنه كان خوفاً مخفياً. أدهشت شارلوت وقاحة الرجل: استدار الوجه الابيض اليه مثل كرة عارية وحدق الى وجهه، فكان شارلوت هو الذي ادار وجهه. اذ لم يستطع الصمود امام نظراته، فأجاب شارلوت:

ـ نعم انه هو، شافيل، ولكنه تغير كثيراً.

ظهر على وجه الرجل مايدل على الارتياح، وزال بعد ذلك التوتر .

سألت الفتاة:

ـ حسناً، ماهي الرسالة التي تحملها إليّ .

ـ طلب مني اخوك ان ابلغك انه كان يحبك وانه قدم هذه التضحية من اجلك.

كان الجو شديد البرودة في الصالة الكبيرة واخذ الرجل يرتعش فجأة وقال:

ـ طبت مساءً آنستي. اغفري لي تطفلي. كان يجب ان اعرف ان

الابواب موصدة في وجهي.

انحنىٰ بكياسة في حركة تمثيلية لكنها لم تره فقد استدارت واختفت مع استدارة السلم.

قال شارلوت مستهزئاً:

ـ الباب ياسيد شافيل.

ولكن، كان لدىٰ الرجل سهم آخر اراد ان يرميه فقال لشارلوت:

ـ انك محتال أفاك. لم تكن في السجن ولم تتعرف إلي.هل تظن انني انسىٰ وجهاً رأيته هناك. ارىٰ لزاماً عليّ ان اكشف امرك لسيدتك. لابد انك هنا لتستغل طيبتها.

تركه شارلوت يثرثر ويغوص اكثر في الكلام ثم قال:

ـ انا كنت في ذلك السجن وقد تعرفت اليك... ياسيد كاروس.

نظر الرجل نظرة طويلة الىٰ شارلوت وقال له:

ـ ياإلهي! انت لست پيدو، لايمكن ان تكون پيدو بصوتك هذا

ـ كلا، سبق لك ان توهمت انني پيدو، انا اسمي شارلوت.

هذه هي المرة الثانية التي تقدم اليّ فيها خدمة ياسيد كاروس.

ـ وانت ترد الجميل بطردي من البيت في اثناء الليل، أليس كذلك؟ الريح شرقية وعليّ اللعنة ان لم يسقط المطر في لحظات.

كلما اشتد خوفه ازدادت علامات المرح عليه وكأن المرح دواء لاعصابه. رفع ياقة سترته وقال:

ـ يالها من نهاية تعيسة لمثل قدير ان يقابل بالازدراء والاستهجان في الارياف. طبت مساء يا ناكر الجميل. لاأدري كيف اخطأت وظننتك پيدو المسكين.

ـ سوف يجمّدك البرد.
ـ محتمل جداً. ادغار آلن پو جمده البرد ايضاً.
فقال له شارلوت:
ـ اسمع، لست ناكراً للجميل تماماً . يمكنك ان تبقىٰ الليلة فقط، اخلع حذاءك وانا اغلق الباب.
فاغلق الباب محدثاً صوتاً مرتفعاً وقال:
ـ اتبعني.
لكنه ماأن خطا خطوتين فقط حتىٰ نادته الفتاة من صحن السلم وسألته:
ـ شارلوت، هل ذهب؟
ـ نعم لقد ذهب.
انتظر لحظة ثم قال:
ـ سأذهب للتأكد ان الباب الخلفي مغلق.
واخذ يقود الرجل الحافي إلا من جواربه في الممر باتجاه المطبخ ثم صعد السلم وعندما دخلا غرفته قال له:
ـ يمكنك ان تنام هنا الليلة وسوف اساعدك في الخروج في الصباح الباكر. يجب الّا يراك احد والّا سوف اترك البيت معك..
جلس الرجل على السرير ومدّ قدميه. سأله شارلوت بفضول:
ـ هل انت كاروس حقاً، الممثل المشهور؟
فأجابه الرجل:
ـ ليس هناك كاروس اخر. ليس لي اشقّاء او شقيقات كما ان والديّ ليسا علىٰ قيد الحياة. قد يكون هناك اشخاص غير معروفين يعيشون

في مجاهل المقاطعات ويحملون الاسم نفسه. ربما هناك ابن عم ثانٍ لي يعيش في ليموج.

جفل قليلاً ثم اضاف:

ـ حقاً ماتزال هناك زوجتي الاولى، العجوز العاهر.

ـ هل يلاحقك رجال المقاومة؟

فأجاب السيد كاروس:

ـ يسود البلد في الوقت الحاضر تزمت غريب يدعي اصحابه ان في وسع الانسان ان يعيش على الخبز فقط. يالها من فكرة غريبة مناقضة للكاثوليكية. اعتقد أنه كان في وسعي ان اعيش على الخبز وحده وحتى الخبز الاسود في اثناء فترة الاحتلال، اما الآن فللروح ايضاً كمالياتها.

وابتسم واثقاً واضاف:

ـ هناك مصدر واحد يمكن الحصول منه على الكماليات.

ـ ولكن ما الذي دفعك الى المجيء الى هنا؟

ـ الشرطة ياعزيزي وهؤلاء الشباب المتعصبون من حملة البنادق الذين يسمون انفسهم برجال المقاومة. كنت متجهاً نحو الجنوب ولكن لسوء الحظ ملامحي معروفة لدى الناس في كل مكان.

واضاف بمسحة من المرارة:

ـ باستثناء اهل هذا البيت.

ـ ولكن كيف عرفت... مالذي جعلك تفكر...؟

ـ يعتاد الانسان القيام بحيلة مسرحية حتى في الكوميديا الكلاسيكية، ياصديقي . عدل من بنطلونه منتشياً واضاف:

ـ كانت حيلة دبرتها . ولكنك ستقول لم تكن اكثر حيلي نجاحاً، ومع ذلك لو اتيح لي الوقت الكافي لتمكنت من اقناع الفتاة.

ـ مازلت اجهل كيف جئت الى هنا.

ـ كان دوراً ارتجالياً ليس غير. كنت في احدى الحانات التي تبعد حوالي ستين كيلومتراً من هنا، في منطقة لا اذكر اسمها تماماً ، ولكن اعتقد انه يبدأ بحرف الباء. كان هناك رجل مضحك كبير السن اطلق سراحه من السجن قبل فترة وكان جالساً يشرب مع زملائه. يبدو انه شخص بارز في المدينة وعرفت فيما بعد انه المحافظ . لابد انك صادفت مثل هذه النماذج، رجلاً ذا كرش كبير وسلسلة متصلة بساعة بحجم قطعة جبن كبيرة ، كان يفاخر كثيراً وهو يخبرهم بقصة الرجل الذي اشترى حياته في السجن، كان يسميه الرجل العاشر، انه عنوان جيد .

كان حانقاً عليه بعض الشيء، لم اعرف السبب . عندما سمعت القصة خطر لي ان شافيل هذا لن يتجرأ ابداً على ان يعود الى بيته ولذلك قررت ان آتي الى هنا بدلاً منه. اظن انني استطيع ان امثل دوره افضل منه هو، لابد انه كان من طراز المحامين الاغبياء. لاشك في انك تعرفت اليه في السجن.

ـ نعم. اعتقد انه لم يخطر ببالك حدوث مصادفة كهذه.

ـ ومن يستطيع حتى تصور ذلك. المصادفة كبيرة جداً. اظن انك كنت في السجن حقاً، لااظنك انت ايضاً تمثل عليها، اليس كذلك؟

ـ كلا . لقد كنت في السجن حقاً .

ـ اذن لماذا ايدت ادعائي انني شافيل وتظاهرت بانك تعرفني.

اجابه شارلوت:

ـ كانت تعتقد دوماً ان شاڤيل سيعود يوماً ما، لقد استحوذت عليها هذه الفكرة وتسلطت على شعورها تسلطاً غير سوي. وقد فكرت ربما تكون انت الشفاء الذي تحتاج اليه. قد تكون شفيت فعلاً . ينبغي ان اذهب الآن. اذا كنت تريدني ألّا ارميك في المطر فلا تتحرك من هنا.

نزل شارلوت فوجد تيريز في غرفة الطعام تحدق الى صورة جده ، فقالت له:

ـ ليس هناك اي شبه بينه وبين الصورة على الاطلاق.

ـ الا تعتقدين ان هناك شيئاً، قد يكون في العينين...

ـ كلا لا أرىٰ اي شبه. هناك شبه بينك وبين الشخص المرسوم في اللوحة اكثر مما بينه وبين اللوحة.

فسألها:

ـ هل اهيىء المائدة؟

فأجابت:

ـ كلا، لانستطيع ان نتناول طعامنا هنا، مادام هو في هذه المنطقة.

قال شارلوت:

ـ ليس هناك مايدعو الىٰ القلق. سترين ان التحول حقيقي. لن يضايقك ابداً بعد الآن . يمكنك ان تنسي كل شيء عنه الآن . فأجابت بانفعال:

ـ هذا ما لن استطيعه ابداً. هل رايت كم كنت جبانة. لقد قلت قبل ايام ان كل انسان لابد ان يمر بمرحلة اختبار حقيقي يعرف بعدها

حقيقة معدنه. حسناً الآن عرفت نفسي جيداً. كان ينبغي لي ان اصافحه واقول له: مرحباً بك اخي فكلانا من المعدن نفسه .

قال شارلوت:

ـ لاافهم، لقد طردته من البيت ، وماذا كنت تريدين ان تفعلي غير ذلك؟

ـ كان في وسعي ان أطلق عليه النار. كنت اردد دائماً مع نفسي انني سوف اطلق عليه الرصاص عندما يأتي.

ـ لايمكنك ان تذهبي وتأتي ببندقية وتقتلي انساناً بهذه القسوة والفظاعة.

ـ ولِمَ لا؟ لقد تسبب في قتل اخي بقسوة وفظاعة. لابد انه حافظ على هدوء اعصابه طوال الليل، أليس كذلك؟ لقد اخبرتني بأنهم اعدموا اخي في الصباح.

مرة اخرى وجد نفسه في موقف دفاعي وقال:

ـ هناك شيء لم اخبرك به. حاول شاشيل مرة الغاء الصفقة خلال الليل ولكن اخاك رفض ولم يوافق.

ـ مرة واحدة، مرة واحدة! هل يعجبك ذلك . حاول مرة واحدة.لابد انه حاول بكل اخلاص.

تناولوا طعام العشاء في المطبخ كالمعتاد، سألت مدام مانجو متذمرة عن سبب الضوضاء في الصالة وقالت:

ـ كان يبدو ان هناك اجتماعاً حاشداً.

فأجابها شارلوت:

ـ كان ثمة شحاذ اراد ان يمضي الليلة في البيت.

ـ ولماذا سمحت له بدخول البيت. ما هؤلاء الرعاع الذين يأتون الى البيت حالما ادير وجهي.لاعرف كيف سيكون رد فعل ميشيل.
قالت تيريز.
ـ لم نسمح له بالذهاب ابعد من الصالة، ياامي.
ـ ولكني سمعت صوت اقدام شخصين يسيران في الممر باتجاه المطبخ. لم تكوني انت احدهما فقد كنت في الطابق الاعلى.
فرد شارلوت بسرعة:
ـ لم استطع ان ابعده دون ان اعطيه كسرة خبز. سيكون ذلك تصرفاً غير انساني. لقد اخرجته من الباب الخلفي.

اشاحت تيريز ببصرها عنه بحزن واخذت تنظر الى العالم الرطب من خلال النافذة. كان المطر ينهمر بقوة في الخارج وكانت قطراته تضرب زجاج النوافذ وتجري من الافاريز. لم تكن ليلة يستطيع اي كائن بشري ان يبقى فيها في العراء فأدرك مدى كراهيتها شافيل. كان يفكر في شافيل وكأنه انسان آخر وكان يتصور انه قد نجح في اخفاء هويته الحقيقية الى الابد.

تناولوا عشاءهم في صمت، ثم ذهبت مدام مانجو الى فراش النوم مباشرة. كانت تعرج قليلاً. لم تعد تعمل شيئاً من اشغال البيت ولم تكن ترى ابنتها في اثناء العمل. وما لم تره بعينيها لاتعرف عنه شيئاً. لقد اصبحت عائلة مانجو من اصحاب الاملاك ولم يعد افرادها يعملون بانفسهم، بل كانوا يستخدمون الآخرين.

قالت تيريز لشارلوت:
ـ لم يبدُ لي جباناً.

ـ من الافضل ان تنسيه الآن.

فأجابت تيريز:

ـ لابد ان المطر يلاحقه منذ ان خرج من البيت. إنه ينهمر كالنهر.

ـ لاداعي للتفكير فيه بعد الآن .

ـ ان ميشيل مات ايضاً. لقد مات الآن بالفعل.

مدت يدها واخذت تمسح البخار المتجمع علىٰ زجاج النافذة واضافت:

ـ الآن جاء وذهب مرة اخرىٰ وميشيل ميت . لم يعد هناك شخص آخر يعرفه.

ـ بل كنت اعرفه انا.

ـ اوه، نعم.

قالتها بلهجة غامضة كأنه لاقيمة لمعرفته ميشيل.

قال لها:

ـ تيريز،

وكانت تلك هي المرة الاولىٰ التي يخاطبها فيها باسمها.

فأجابت مستفسرة:

ـ نعم؟

كان رجلا تقليدياً لم يتغير ابداً. وقد امدته الحياة بنماذج سلوك معينة لمواجهة اي ظرف، وكانت هذه النماذج حاضرة علىٰ الدوام حوله مثل دمىٰ الخياط. لم يكن هناك نموذج لرجل محكوم بالاعدام ولكن من المؤكد انه لم يتجاوز منتصف العمر الّا وقد تقدم بطلبات زواج اكثر من مرة غير ان الظروف كانت أيسر في السابق .كان في وسعه

ان يذكر وبارقام دقيقة مقدار دخله السنوي وتفاصيل املاكه وان يخلق جواً من الالفة ، والأهم من ذلك إن يحمل هو والفتاة التي يتحدث اليها آراءً متشابهة في الدين والسياسة والحياة العائلية. اما الآن فهو يرىٰ صورته في علبة حاملاً قطعة قماش لتنظيف الاواني. ليس لديه نقود او اية ممتلكات اخرىٰ ولا يعرف اي شيء عن هذه المرأة سوىٰ تلك الرغبة الروحية والجسدية العمياء وتلك الرقة الفائقة وذلك الشوق الذي لم يجربه من قبل ليحمي...

قطعت افكاره وقالت:

ـ ماذا تريد؟

كانت ماتزال تقف امام النافذة كأنها لا تستطيع ان تفصل نفسها عن ذلك المتسكع المبتل والطويل القامة الذي يشبه شاقيل.

فقال بلهجة جافة:

ـ لقد عشت في هذا البيت اكثر من اسبوعين ومما لاشك فيه انك لاتعرفين عني شيئاً بعد.

ـ لا ضير في ذلك.

ـ هل فكرت في ما ستفعلينه عندما تموت امك؟

ـ لست ادري. هناك متسع من الوقت للتفكير في ذلك.

رفعت عينيها علىٰ مضض عن الزجاج الذي سال عليه المطر وقالت مبتسمة:

ـ ربما سأتزوج..

غلبه شعور بالغثيان واليأس. لم يكن هناك سبب يدعوه الىٰ الاعتقاد انها لم تترك وراءها رجلا في باريس، ربما هو شاب غبي من ابناء

طبقتها يعرف مثلها شوارع منيل مونتان معرفة سطحية.
ـ من هو؟
فأجابته بخفة:
ـ وكيف لي ان اعرف؟ ليس هناك الكثير من الرجال في هذه المنطقة، اليس كذلك؟ هناك فعلاً روش البطل مبتور الذراع ولكني لا احب الزواج برجل ناقص وهناك ايضاً انت...
شعر بجفاف في حلقهِ. كان غريباً ان يشعر بمثل هذا الشعور قبل ان يطلب يد ابنة صاحبة حانوت ولكنه ضيع الفرصة المواتية قبل ان يحرك لسانه. فقالت:
ـ ربما يتعين عليّ ان اذهب الىٰ سوق بريناك للبحث عن زوج. كنت اسمع دائماً انه عندما يكون الانسان غنياً سيحوم حوله الكثير من صيادي الفرص ولكني لاارىٰ اياً من هؤلاء في هذه المنطقة.
مرة اخرىٰ بدأ يتكلم بلهجة رسمية وقال لها:
ـ تيريز ،
وسكت برهة ثم قال :
ـ من هذا ؟
فأجابته :
ـ انها أمي ومن غيرها يمكن ان يكون .
جاء صوت من جهة السلالم يقول :
ـ تيريز ، تيريز ،
فقالت تيريز لشارلوت :
ـ سأتركك تكمل غسل الصحون وحدك . اعرف ماذا يعني ذلك الصوت، انها تتكلم بهذه اللهجة عندما تريد أن تصلي . لن تنام

الليلة قبل ان تكمل سلسلة من الصلوات علىٰ الاقل . عمت مساء ياسيد شارلوت .

كانت تناديه بالسيد في نهاية النهار حتىٰ تداوي أي جرح قد اصاب كرامته في اثناء النهار . لقد فاتته الفرصة وكان يعلم انها قد لا تعود مرة اخرىٰ إلا بعد عدة أسابيع.شاعر انهاكانتمستعدة أتم الاستعداد في تلك الليلة ، أما غداً ....

فتح باب غرفته فوجد كاروس مستلقياً علىٰ فراشه وقد التحف بمعطفه طلباً للدفء . كان فمه مفتوحاً بعض الشيء وكان يرسل شخيراً غير منتظم . أيقظه صوت مزلاج الباب ولكنه لم يتحرك ، بل اكتفىٰ بفتح عينيه واخذ ينظر الىٰ شارلوت وعلىٰ وجهه ابتسامة ابوية باهتة وسأله :

ـ حسنا ، هل تحدثتم عني ؟

ـ ان الدور الذي مثلته هنا لا يتناسب وسمعتك بوصفك ممثلاً ذا خبرة .

فأجابه كاروس :

ـ لا أظن ذلك .

وجلس علىٰ السرير وأخذ يمسد حنكه العريض الممتلىء واضاف :

ـ أظن انني تسرعت بعض الشيء ، لم يكن هناك مايدعو الىٰ ذهابي بهذه الصورة . لقد اثرتُ اهتمامها علىٰ الاقل ولا يمكنك انكار ذلك ، ولقد كسبت نصف المعركة ياصديقي العزيز .

ـ انها تكره شافيل .

ـ ولكني لست شافيل الحقيقي ، يجب الّا تنسىٰ ذلك . انا امثل دور شافيل فقط ، ألا تستطيع أن ترىٰ ما سأكسبه عندما اتخلص من

اغلال الحقيقة الباهتة والبغيضة . إمنحني بعض الوقت وسأجعلها تحب شافيل . بالمناسبة هل سبق أن رأيتني وانا امثل دور پيير لوشار ؟

ـ كلا .

ـ انه دور رائع . كنت أمثل دور فاسق سكير عديم الفائدة يوقع بالنساء من أسوأ طراز . ولكن لا يمكن أن تتصور كم من إمرأة وقعت في غرامي . بعد تمثيلي ذلك الدور وحده وصلتني دعوات تفوق ....

ـ لقد بصقت في وجهك .

ـ وهل تظن انني نسيت ذلك ياصديقي العزيز . كان منظراً مثيراً . كانت واحدة من اروع اللحظات التي عشتها . ليس من السهولة مشاهدة منظر على هذه الدرجة من الواقعية على المسرح . واظن انا أيضاً أجدت تمثيل دوري . الكُم ، ياللروعة ! أراهنك على أنها تفكر هذه الليلة في ذلك المنظر وهي على سريرها .

قال شارلوت :

ـ حتماً ، ليس في وسع شافيل أن ينافسك .

ـ انسى دائماً انك كنت تعرف ذلك الرجل . هل يمكنك أن تذكر بعض التفاصيل عنه للاستفادة منها في تمثيل الدور .

ـ لا فائدة من ذلك . ستخرج من هنا قبل انبلاج ضياء الصباح . لقد أسدلت الستارة ، هل تسمح بترك سريري رجاءً .

فأجابه الممثل وهو ينسحب بضعة انجات باتجاه الحائط :

ـ المكان يتسع لكلينا .

بدأت ملامحهُ تتغير وظهرت عليه سمات الفساد والابتذال اللذين

كان منغمساً فيهما ايام شبابه . لم يعد كاروس العظيم الذي تجاوز منتصف العمر . بدأ الشباب يزحف في عروقه تحت طبقات الشحم .
اتكأ على أحد مرفقيه وقال بخبث :
ـ أرجو الاّ يضايقك كلامي .
ـ ماذا تقصد ؟
ـ استطيع ان ارى ، ياصديقي العزيز ، بعين مغمضة انك واقع في قبضة رغبة جامحة .
تجشأ برفق وابتسم ابتسامة عريضة وهو يتمدد على السرير .
قال شارلوت :
ـ هذا هراء .
ـ بل انه كلام منطقي . ها انت ذا وقد بلغت من العمر مرحلة يثير فيها منظر الشباب عواطف الانسان بسهولة . تعيش وحدك في هذا البيت مع فتاة شابة جذابة وان كانت فظة بعض الشيء . اضف الى ذلك انك كنت في السجن فترة طويلة وتعرفت الى اخيها . انها معادلة كيميائية يازميلي العزيز .
تجشأ مرة اخرى واضاف موضحاً :
ـ هذا مايحدث لي دوماً عندما اتناول طعامي في وقت متأخر . يجب ان اكون حذراً عندما استقبل صديقة شابة ، الحمد لله ان هذا النوع من الغرام تخبو جذوته بعد مرور بضع سنوات . اما مع النساء الاكبر فإن الانسان يستطيع أن يتصرف بحرية ويكون منسجماً مع ذاته .
ـ من الافضل أن تنام الآن لانني سأوقظك في وقت مبكر من صباح غد .
ـ اعتقد انك تخطط للزواج بها .

نظر شارلوت وهو يستند الىٰ المغسلة نظرة ازدراء الىٰ كاروس .. لم يكن في الواقع ينظر الىٰ شارلوت وحده ، فالمرآة المعلقة بخزانة الملابس عكست صورته اضافة الىٰ صورة كاروس ، كان يرىٰ حطام رجلين تجاوزا منتصف العمر يتبادلان الحديث عن فتاة شابة . لم يسبق له أن شعر بتقدم العمر كما شعر به في هذا اليوم .

سأله كاروس :

ـ هل تعرف انني اشعر ببعض الأسىٰ لانني سأغادر هذا المكان . أظن ان في وسعي منافستك حتىٰ لو كنت جان لوي شافيل . انك تفتقر الىٰ الحيوية والنشاط ياصديقي العزيز . كان عليك أن تذهب هذه الليلة وتحاول كسب ودها ما دام في الجو شيء من العواطف بفضلي .

ـ لا اريد ان يكون لك فضل عليّ .

ـ ولِمَ لا ؟ فليس لديك شيء ضدي وقد بدأت تنسىٰ انني لست شافيل .

تثاءب قليلاً ومد أطرافه واضاف :

ـ حسناً لا تقلق .

واستقر بجوار الحائط وقال :

ـ والآن أطفىء النور ياعزيزي .

وسرعان ما غط في النوم .

جلس شارلوت علىٰ الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة وكان من نوع الكراسي الصلبة المستعملة في المطبخ . حيثما أدار بصره وجد من العلامات مايدل علىٰ مدىٰ شعور شافيل المزيف بالاستقرار في البيت . فعلىٰ الباب كان معطفه معلقاً وقد تجمعت بقعة صغيرة من

الماء تحته على أرضية الغرفة ووضع سترته على مسند الكرسي . وعندما نظر الى الممثل في الفراش رأى انتفاخاً في جيب بنطلونه وأحس أنه كان يخفي شيئاً ثقيلاً في جيبه . تقلب الممثل في السرير مسبباً صريراً تحته فأطفأ شارلوت النور وتحسس الثقل الموجود في جيب كاروس . كان المطر ينهمر على النوافذ مثل زبد امواج البحر . تلاشى الامل والبهجة اللذان شعر بهما في ذلك اليوم ورأى مشاعره على حقيقتها قبيحة وشائخة .

تحرك قليلاً في الفراش وتحسس ثانية جيب الممثل . تدحرج كاروس وارتفع صوت شخيره المستمر . وبدا جسمه لشارلوت كأنه كيسا دقيق مرميان هناك بطريقة عشوائية . مدّ يده الى جيب كاروس فلمس فيه كعب مسدس . لم يستغرب ، فقد عاد الناس مرة أخرى الى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم . وكان أمراً طبيعياً أن يحمل الناس أسلحة نارية في جيوبهم مثلما كان طبيعياً ان يحمل الناس سيوفاً قبل ثلاثمائة سنة . ولكنه قال لنفسه من الافضل ان يكون المسدس في جيبي . كان مسدساً صغيراً من الطراز القديم ، أدار المخزن باصبعه فوجد انه يحتوي على خمس طلقات ، أما مكان الطلقة السادسة فكان فارغاً . قرّب فوهة المسدس من أنفه واستطاع أن يشم رائحة البارود التي تنبعث كالمعتاد بعد اطلاق الرصاص. شعر بحركة على الفراش وكأن فأراً يركض بين كيسي الدقيق ، استدار فرأى ذراع الممثل وسمعه يدمدم ببضع كلمات في نومه ولكنه لم يستطع سماعها أو تمييزها ، ربما كان يمثل حتى في نومه .

وضع شارلوت المسدس في جيبه وسحب رزمة صغيرة من الاوراق

من جيب كاروس كانت ملفوفة بشريط مطاطي . كان الظلام دامساً لا يسمح بقراءة الاوراق أو فحصها . فتح الباب بهدوء ودلف الىٰ خارج الغرفة . ترك الباب مفتوحاً لئلا يحدث ضوضاء واشعل النور وأخذ يتفحص لقيته .

كان واضحاً من اول نظرة انها لم تكن اوراق كاروس الخاصة . كانت بينها قائمة صادرة في ٣٠ آذار ١٩٣٩ لشخص يدعىٰ توبار لشراء مجموعة من السكاكين ، دهش كيف يحتفظ انسان بوصل طوال هذه الفترة ، لابد ان يكون انساناً منتظماً ودقيقاً ، فحص بقية الاوراق وتأكد أن توبار هذا فعلا انسان دقيق وكانت هويته التي وجدها بين اوراقه تحمل صورته الشخصية . كان يبدو رجلاً مسالماً تبدو عليه ملامح الخوف من الموت كأن مصيدة تنتظره في كل مكان . كان من الطراز الذي يسلك مسالك عديدة مختلفة ويفضل السير في رحلات طويلة حتىٰ يتجنب خطراً ما . صادف شارلوت العشرات من امثاله أثناء عمله في المحاكم . وساءل نفسه كيف وصلت اوراق هذا الرجل الىٰ يد كاروس وتذكر المخزن الفارغ في مسدس الممثل . كانت الاوراق والمستندات في تلك الايام اكثر أهمية من المال .

لقد مثل كاروس دور شافيل حتىٰ يضمن لنفسه المبيت ولو ليلة واحدة ، ولكن هل كان يأمل ان ينجو بنفسه من خلال هذه الهوية ؟ الاجابة هي ان خمس سنوات مدة طويلة ومن شأنها أن تحدث تغييرات كبيرة . ففي نهاية الحرب اصحبت صورنا كلها قديمة .

لقد حمل الرجل المسالم سلاحا حتى يقتل به واما الشجاع فقد خانته شجاعته .

عاد الىٰ الغرفة وأعاد رزمة الاوراق والمسدس الىٰ جيب الممثل .

لم يعد يرغب في الاحتفاظ بالمسدس . انغلق الباب خلفه فجأة واحدث صوت اطلاق رصاصة فقفز كاروس وجلس علىٰ السرير .

وقع بصره علىٰ شارلوت وصاح بقلق :

ـ من أنت ؟

ولكن قبل أن يأتيه الجواب عاد الىٰ النوم كأنه طفل وديع . وتساءل شارلوت : «لماذا لايستطيع جميع القتلة أن يناموا نوماً عميقاً كهذا»

(١٤)

قالت تيريز :

ـ أين كنت ؟

أجابها وهو يكشط الطين من حذائه بسكينة :

ـ ظننت انني سمعت صوتاً في اثناء الليل فخرجت لأتأكد .

ـ وهل وجدت شيئاً ؟

ـ كلا .

فقالت :

ـ ربما كان شافيل ، بقيت مستيقظة ساعات طويلة وانا افكر .

كان يجب الا اطرد الرجل في ليلة رهيبة كهذه . كنا أنا وأمي نصلي في الداخل بينما هو يمشي في الخارج ، ياالهي ، كل مرة صلينا فيها كنت أريد ترك الجزء الخاص بالغفران ولكنني كنت أخشىٰ ان ذلك سيثير شكوك أمي .

ـ ان يسير تحت المطر افضل من أن يطلق عليه الرصاص .

ـ لا اعرف ، هناك اعتبارات عديدة ، أليس كذلك ؟ عندما بصقت في

وجهه ..

توقفت قليلاً ، وتذكر الممثل وهو مستلقٍ في فراشه يتفاخر برد فعله من ذلك الموقف . وتذكر ايضاً قول الممثل : «ستفكر كثيراً في ذلك» .

شعر بالرهبة عندما أدرك ان رجلاً مزيفاً مثل هذا الممثل يستطيع قراءة افكار شخص آخر علىٰ تلك الدرجة من الدقة . وفكر في انه لولا زيفه لما استطاع ذلك ، فالحقيقة لا تعلّم الانسان كيف يعرف أخاه الانسان .

قال شارلوت :

ـ لقد انتهىٰ كل شيء ، كفي عن التفكير في ذلك .

ـ هل تعتقد انه وجد مأوىٰ؟ كان خائفاً ان يسأل أحداً في القرية . ماالذي كان سيحصل لو سمحت له بقضاء الليل هنا .

واخذت تلقي باللوم عليه وقالت :

ـ لماذا لم تقترح عليّ ذلك ؟ ليس هناك مايجعلك تكرهه .

ـ من الافضل أن تبعدي الموضوع عن رأسك . لم تكوني متلهفة علىٰ أن تغفري له قبل أن تريه .

أجابت :

ـ ليس من السهل أن تكره وجهاً تعرفت اليه مثل وجه كنت تتخيله .

فقال لنفسه «لو صح كلامها فيالي من أحمق» .

وأضافت :

ـ هناك من الشبه بيني وبينه اكثر مما كنت أظن خصوصاً عندما وصلت الىٰ مرحلة لم استطع فيها اطلاق النار عليه . لقد فشلت في الاختبار تماماً كما فشل هو .

فأجابها :
ـ اوه ، اذا كنت تبحثين عن نقاط شبه كهذه فانظري اليّ . ألا تعتقدين أنني رمز الفشل والاحباط في نظرك ؟
نظرت اليه غير مكترثة وقالت :
ـ نعم ، نعم ، أظن ذلك ، لقد أرسل ميشيل رسالته عن طريقهِ .
ـ نعم ، فعل ذلك .
ـ لا ارىٰ سبباً يدعوه الىٰ الكذب بشأن ذلك وليس بشأن الموضوع الاهم .
واضافت ببساطة شديدة :
ـ في الحقيقة ، لم يخطر ببالي انه من الطراز الذي يمكن أن يكذب .
في تلك الليلة تدهورت صحة مدام مانجو . لم يكن ثدياها الكبيران في الواقع سوىٰ ستار يخفي الضعف والمرض . وانهارت خلف ذلك الستار دون أن ينتبه لذلك أحد . لم يكن مرضها من الحالات التي يعالجها الاطباء ، وحتىٰ لو كان الامر كذلك لم يكن هناك في تلك الايام مايكفي من الاطباء لكي تصل الخدمات الصحية الىٰ منطقة ريفية غريبة مثل بريناك . كان حضور القس أهم عندها من حضور الطبيب ، فاضطر شارلوت الى الذهاب الىٰ منطقة الخطر وأن يتسلل اول مرة منذ مجيئه الىٰ سان جان . كان الوقت مبكراً جداً ولم يصادف أحداً في طريقهِ الىٰ بيت القس . عندما وصل هناك ودق الجرس شعر بنبضه كأنه طبل يدق علىٰ ضلوعه . كان يعرف الرجل العجوز جيداً . لقد اعتاد شافيل تناول العشاء في ذلك البيت الكبير كلما كان يزور سان جان . كان يعرف ان القس ذكي ولا يمكن أن تخدعه لحية أو بضعة تجاعيد حفرتها تلك السنين علىٰ وجهه . كان

يحس بمزيج من القلق والتوقعات . ما أغرب ان يعود الىٰ نفسه مرة اخرى ولو أمام شخص واحد فقط .

ولكن شخصاً غريباً اجابه عندما طرق الباب .

كان شاباً أسمر ذا ملامح خشنة تدل علىٰ انه كان حرفياً ماهراً ومثابراً . وضع الكتاب المقدس في حقيبته وسأل :

ـ هل الجو رطب عبر الحقول ؟

فأجابه شارلوت :

ـ نعم .

ـ إذن يجب أن تنتظر قليلاً حتىٰ أنتعل حذائي المطاطي .

في الطريق كان يسير بسرعة ولم يستطع شارلوت اللحاق به . وكان حذاؤه المطاطي المبتل يدفع قطرات الماء أمامه كأنه يبصق . سأله شارلوت:

ـ كان هناك قس أسمه الاب روس .

فأجابه القس الشاب وهو يحث الخطىٰ :

ـ توفي العام الماضي .

وأضاف بلهجة حزينة :

ـ لو عرفت كم عدد القسّيسين الذين يموتون بهذه الطريقة كل سنة لاستغربت كثيراً . يمكننا أن نسمي ذلك من اخطار المهنة .

ـ يقولون انه كان انساناً طيباً .

فأجابه خليفة الاب روس بحدة :

ـ ليس من الصعب ارضاء القرويين . فأي قس يقضي أربعين عاماً في المكان نفسه لابد أن يصبح انساناً طيباً .

كان يبدو كما لو كان يمص اسنانه بين كل كلمة واخرىٰ يقولها .

ولكن الحقيقة ان مصدر هذا الصوت كان الحذاء المطاطي .

استقبلتهم تيريز عند الباب وتبعها القس الى الطابق الاعلى وهو يحمل حقيبته كأنه رجل يحمل عدة عمله . لم يضيع وقتاً طويلاً هناك . عاد الى الصالة بعد عشر دقائق وأخذ ينتعل حذاءه المطاطي ثانية . وقف شارلوت في الممشى يراقب القس وهو يلقي تحية الوداع بلهجة رسمية وبسرعة وسمعه يقول للفتاة :

ـ اذا احتجتم إليّ مرة اخرى فأرجو أن ترسلي أحداً في طلبي ولكن تذكري ياآنستي أن هناك أشخاصاً آخرين في سان جان هم أيضاً بحاجة الى خدماتي .

ـ هل لي أن أحظى ببركاتك ؟

ـ دون شك .

فأشار بيده في الهواء كما يختم الكاتب العدل ورقة رسمية بختمه وأصبحا وحيدين . لم يشعر شارلوت من قبل أن وحدتهما كانت تامة الى ذلك الحد وكأن العجوز قد ماتت فعلاً وانهما بقيا ليواجها الموقف وحدهما .

الرجل العاشر

الجزء الرابع

(١٥)

جلس الممثل القدير كاروس تحت سقيفة المشتل وأخذ يتأمل الحالة التي هو فيها ، لم يتأثر كثيراً بما يحيط به من ظروف مهينة . كان يشعر إنه امير ديمقراطي يترفع عن الخوض في مسائل تافهة كالطبقة والتقاليد . لقد مثل من قبل دور ملك بريطانيا جورج الخامس وملك رومانيا كارول والارشيدوق أوتو والمبعوث الشخصي لرئيس الولايات المتحدة والماريشال غورنغ والعديد من السفراء بما فيهم دور السفير الايطالي والروسي والهر آبيتز . تلألأت هذه الادوار في ذهنه كجواهر ثمينة . شعر أنه يستطيع الاستفادة من كل هذه الشخصيات العظيمة والملكية وقت الضرورة وكأنهم ممثلون جاهزون للقيام بادوارهم عند الطلب . مع ذلك فقد انتابه قلق في صباح ذلك اليوم عندما وجد اسمه في اعلان علىٰ حائط مركز الشرطة في سان جان بين أسماء المتعاونين مع العدو ممن لم يلق القبض عليهم حتىٰ الآن . والىٰ جانب هذا الاعلان اعلان آخر عن حادثة قتل في احدىٰ القرىٰ الواقعة على مسافة خمسين ميلاً من سان جان . يبدو ان الشرطة لم تكن تعرف تفاصيل الحادث بدليل ان الاعلان لم يحدد نوع الجريمة . ظن كاروس انه لو كانت الشرطة علىٰ معرفة تامة بالتفاصيل لذكرت في الاعلان كلمة جريمة قتل انسان .

لقد قتل كاروس المجني عليه دفاعا عن النفس ليحول دون فضح ذلك البرجوازي الصغير الاحمق أمر تعاونه مع العدو للشرطة . وتذكر انه أخفى الجثة في مكان أمين تحت اشجار الجولق بجانب الطريق العام وانه سلب من القتيل الاوراق التي قد تساعده في اجتياز نقطة تفتيش عابرة قد يصادفها في الطريق . اما الان وتلك الاوراق لم تعد ذات فائدة له ، بل ربما تجلب عليه الخطر فقد احرقها في المشتل ودفن رمادها في أحد الأصائص .

أدرك بعد أن رأى الاعلانين انه ليس من الحكمة الاستمرار بالتنقل على الاقل قبل أن يترك الزمن آثاره فيهما وتمزقهما الريح ويفقدا ملامحهما. كان عليه أن يختبيء ولم يكن هناك سوى مكان واحد يستطيع اللجوء اليه . لقد كذب الرجل المدعو شارلوت على سيدته بتأييده ادعاء كاروس الكاذب وخالف القانون لانه آوى متعاونا مع العدو ومن شأن هذا الامر أن يوفر ورقة ضغط يستطيع استعمالها لصالحه . كان جالسا في عربة يدوية يفكر في الامر وفجأة خطرت بباله فكرة مشروع جسور. تخيل الستارة وهي ترفع عن مشهد غرامي يصعب تصديق تفاصيله لو لم يكن بطله ممثلاً قديراً مثله ، كانت فكرة المشهد مثيرة على الرغم من انها غير جديدة إذ سبق ان استخدمها شكسبير .

نظر من خلال احد ثقوب السياج الخشبي فرأى شارلوت يسرع الخطى باتجاه سان جان . كان الوقت مبكرا ولم يحن موعد السوق . انتظر كاروس صابرا وجلس على حافة العربة اليدوية التي حفرت اخدودا في مؤخرته الممتلئة .

وبعد قليل رأى شارلوت عائدا مع القس الذي مكث قليلاً في البيت ثم غادره وحده حاملاً حقيبته اليدوية . لم يكن هناك سوى تفسير واحد لزيارة القس.سرعان ما استطاع عقله المبدع استيعاب هذه الحقيقة الجديدة وتكييفها لتصبح جزءاً من المسرحية التي خطط لتمثيلها . ولكنه بقي منتظراً . لو ان العبقرية طاقة غير محدودة على تحمل الآلام فلاشك ان كاروس ممثل عبقري . وسرعان مابدأ يجني ثمار صبره إذ رأى شارلوت يغادر البيت مرة اخرى باتجاه سان جان . نهض من مكانه ومسح عفن اوراق الشجر الذي علق بعضه بمعطفه ومد أطرافه وكأنه قط كبير كسول ومخصي . ارتطم المسدس في جيبه بساقه .

ليس ثمة ممثل خلص نفسه نهائيا من رهبة المسرح وقد احس كاروس بهذه الرهبة عندما توجه الى المطبخ امام البيت . بدأت الكلمات التي هيأها لدوره تهرب منه وشعر بجفاف في حلقه . وعندما سحب سلك الجرس كان رنينه الذي انبعث من المطبخ قصيراً وخجولاً خلافاً لما انطوت عليه زيارته السابقة من اوامر وقائية مثل اوامر المحاكم . ظل ممسكاً بمسدسه في جيبه كأنه ضمانة اضافية لرجولته ، وعندما فتح الباب تلعثم قليلاً وهو يقول :

ـ أرجو المعذرة .

وعلى الرغم من انه كان خائفاً ، الا انه ادرك ان التلعثم اللاارادي الذي بدر منه كان في محله. كان وضعاً مثيراً للاشفاق ، وهذا الوضع هو الذي ابقى الباب مفتوحاً وكأنه وضع شيئاً امامه تماماً مثلما يضع المتسول قدمه . وقفت الفتاة في الظل ولم يرَ

وجهها . استمر بالتلعثم وعندما سمع صوته وما كان يوحيه من ضعف زادت ثقته بنفسه . بقي الباب مفتوحاً ولم يطلب شيئاً افضل حتى تلك اللحظة .

ـ قال كاروس : كنت مازال في القرية عندما سمعت بخبر موت والدتك وقد رأيت ان من واجبي ان اعود . اعرف جيدا كم تكرهينني ولكن صدقيني يا آنستي لم اكن أقصد ان أقتل أمك ايضا .

ـ لم يكن هناك مايبرر عودتك فانها لم تكن تعرف شيئاً عن ميشيل .

كان رد فعلها يبشر بخير-تمنى لو استطاع أن يضع قدمه على عتبة الباب ولكنه كان يعي جيداً ان من شأن هذه الخطوة أن تقضي على كل خططه . ان عزلة الريف مهلكة لمن نشأ مثله في المدن .

خشي أن يظهر خلفه فجأة بائع متجول أو أن يعود شارلوت من القرية قبل الاوان-أصغى طوال الوقت لأية جلبة على الحصى .

قال لها متوسلاً :

ـ آنستي ، كان عليّ أن اعود . لم تسمحي لي بأن اتكلم في الليلة الماضية ، بل انني لم استطع حتى اكمال رسالة ميشيل اليك . (وقال لنفسه : اللعنة ، لم يكن هذا ضمن الدور ، أية رسالة ؟)

وأضاف مراوغاً :

ـ لقد حملني إياها ليلة موته .

استغرب من الاثر الذي تركه كلامه فيها ومن وقع كلماته .

ـ ليلة موته ؟ وهل مات ليلاً ؟

ـ نعم دون شك . لقد أعدموه ليلاً .

ـ ولكن شارلوت اخبرني انه مات صباحاً، صباح اليوم التالي .

فأجابها كاروس وهو يئن :

ـ ياله من محامٍ كذاب !

ـ ولكن ماالذي يدعوه الى الكذب ؟

فأجاب مرتجلاً :

ـ كان يريد أن يجعل الامور اكثر صعوبة لي .

شعر باعتزاز لدهائه الذي نقله الى داخل البيت عبر عتبة الباب تراجعت تيريز مانجو قليلا لتدعه يدخل . فقال :

ـ وهل من الانصاف في شيء جعل المرء يموت بعد ليلة كاملة يقضيها وهو يفكر في الموت . لم أشأ ان اكون وغداً تجاهه.

ـ قال شارلوت انك حاولت مرة التراجع عن اتفاقك وسحب عرضك .

فقال كاروس مندهشاً :

ـ مرة واحدة ، نعم مرة واحدة لانه لم تتح لي فرصة أخرى قبل أن يقتادوه الى خارج السجن .

ترقرقت الدموع في عينيه وهو يتوسل اليها قائلاً :

ـ آنستي ، صدقيني ، حدث ذلك في اثناء الليل .

فأجابت :

ـ نعم كنت أعرف انهم اعدموه ليلاً لانني استيقظت في تلك الليلة متألمة .

ـ وفي أيّة ساعة من الليل استيقظت ؟

ـ بعد منتصف الليل مباشرة .

فقال :

ـ كان هذا هو الوقت تماماً .
وقالت :
ـ ياله من نذل ، انها لمنتهى النذالة أن يكذب في هذا الأمر .
ـ انك لا تعرفين شارلوت هذا جيدا ياآنستي ، لا تعرفينه كما كنا نعرفه في السجن . آنستي ، أعرف أنني لا أستحق حتى ازدراءك ، لقد اشتريت حياتي بحياة اخيك ولكني على الاقل لم أغش لانقاذ حياتي كما فعل .
ـ ماذا تقصد ؟
تذكر المحافظ وهو يروي قصة اشتراكهم في القرعة وقال :
ـ آنستي ، اشتركنا جميعاً في سحب القرعة حسب ترتيب حروف الهجاء ولكننا بدأنا بالياء بدلا من الالف نزولاً عند رغبة هذا الرجل ، شارلوت . في النهاية بقيت هناك قصاصتان لي وله وكانت إحدى هاتين القصاصتين مؤشرة بعلامة الموت . فجأت حدث تيار هوائي في السجن ويبدو انه تمكن من رؤية الورقة المؤشرة لان الورقتين طارتا في الهواء قليلا بفعل التيار ، وكان المفروض أن يأتي دور شارلوت في السحب بعد دوري ولكنه خالف الدور ليسحب الورقة غير المؤشرة .
لم تقتنع الفتاة كثيراً بكلامه واشارت الى نقطة الضعف الواضحة في روايته وقالت :
ـ ولكنك كنت تستطيع أن تطلب اعادة اجراء القرعة .
فأجابها كاروس قائلاً :
ـ آنستي ، ظننت حينذاك انها مجرد غلطة بريئة وعندما يكون الثمن

حياة،انسان ليس من السهل أن يعاقب المرء أخاه بسبب ارتكابه غلطة بريئة .

ـ ولكنك رضيت ان تشتري حياتك بحياة انسان آخر .

كان يعلم انه يمثل دور شخص لا يتصف بالكمال . لما تتراكم التناقضات بعد الى الحد الكافي . كان عليه أن يفاجيء الجمهور بتمثيل رومانسي فأخذ يتوسل مرة اخرى :

ـ آنستي هناك أشياءكثيرة تجهلينها . لقد شوه هذا الرجل كل الحقائق . كان اخوك مريضاً جداً .

ـ أعرف .

تنفس بارتياح وتأكد أنه لن يخطىء دوره بعد هذا فازداد تهوراً وقال :

ـ آه لو تعرفين كم كان يحبك وكم كان قلقاً بشأن ماسيحدث لك عندما يموت . كان يريني صورتك باستمرار ..

ـ ولكن لم تكن لديه أية صورة .

فقال وهو يحاول التخفيف من وقع كلامه :

ـاستغرب مما تقولين .

واضطر الى التراجع قليلاً ولكنه كان واثقاً بنفسه فاستعاد رباطة جأشه وقال :

ـ كانت لديه صورة اعتاد أن يريني اياها باستمرار ، كانت صورة منظر عام لاحد الشوارع انتزعها من احدى الجرائد ، فتاة جميلة في الزحام . استطيع أن اخمن انها لم تكن صورتك ولكنها كانت تشبهك ولذلك احتفظ بها وكان يتظاهر ... تعرفين ان الناس

يتصرفون في السجن بطريقة غريبة ياآنستي . فعندما سألني اخوك ان ابيعه قصاصة الورق المؤشرة ...

فقاطعته قائلة :

ـ اوه كلا ، كلا ، انك غير جدير بالتصديق . سألك .. انك تكذب ، لم يكن الامر كذلك .

فقال متألماً :

ـ لقد ملأك بالاكاذيب ياآنستي . أنا مذنب حقاً ولكن هل كنت اتجرأ وأعود الى هنا لو كنت مذنبا بمثل مايدعي هو .

ـ لم يخبرني شارلوت بهذه الاشياء ، بل اخبرني الرجل الذي جلب لنا الوصية وبقية الاوراق . كان محافظ بورج .

ـ كفى ياآنستي ، لقد فهمت كل شـيء ولاحاجة الى اخباري بالمزيد . كان الرجلان صديقني حميمين . الان فهمت كل شيء .

ـ أتمنى لو توضح الامور حتى افهم انا ايضاً كل شيء .

ـ لقد رتب الرجلان كل شيء بينهما بدقة .

ثم قال وقلبه يكاد يقفز من فمه :

ـ سأقول وداعاً ياآنستي وليباركك الله .

قال كلمة «وداعاً» بطريقة مؤثرة وكأنها كلمة يحبها ، حقاً كانت كلمة يعشقها ، ربما كانت اكثر الكلمات فاعلية في دوره الرومانسي كله ، واضاف :

ـ ليباركك الله ، يشهد الله على ما أقول واسأل الله أن يغفر لك .

كان يتحدث وكأن هذه العبارات الشائعة جداً هي ستائر معلقة حول كلمة الله . استدار ببطء واتجه الى الباب . فقالت له :

ـ ولكن ماذا بشأن الرسالة التي بعثها ميشيل ؟

(١٦)

إستند كاروس الى السياج وهو ينظر الى الهيكل الصغير المتجة نحو البيت عبر الحقول قادماً من سان جان . كان يتصرف مثلما يتصرف الرجل في حديقته الخاصة متمتعاً بكامل الحرية . خطرت بباله فكرة فضحك ضحكة صغيرة هادئة ولكن سرعان ما استبدلها باليقظة والانتباه عندما اقترب منه شخص واستطاع تمييزه . انه شارلوت.وقف شارلوت على مسافة منه بعد أن تذكر انه كان يحمل مسدساً في جيبه وحدق اليه ثم قال :

ـ ظننت انك رحلت .

ـ بل قررت أن أبقىٰ .

ـ هنا ؟

فأجاب كاروس بلطف :

ـ إنه بيتي .

ـ كاروس المتعاون مع العدو ؟

ـ كلا وانما جان لوي شافيل الجبان .

فقال له شارلوت :

ـ اذا كنت تريد تمثيل دور شافيل فهناك نقطتان يبدو أنك نسيتهما .

ـ أظن انني دبرت دوري جيداً .

ـ اذا كنت تريد أن تمثل دور شاڤيل فلن يسمح لك بالبقاء إلا اذا كنت ترغب في المزيد من البصاق في وجهك .

ـ وماهي النقطة الاخرى ؟

ـ لم يعد شاڤيل يملك اي شيء هنا .

ضحك كاروس ثانية وهو يستند الى السياج ويده على المسدس تحسباً لأي طارىء وقال :

ـ لدي اجابتان لك ياصديقي العزيز .

إهتز شارلوت لهذه الثقة الكبيرة التي ميزت حديث كاروس وصاح غاضباً :

ـ كفى تمثيلاً .

فأجابه كاروس بأدب :

ـ لقد وجدت أن من السهولة اقناع الفتاة بروايتي أنا عن الاحداث .

ـ أية رواية ؟

ـ رواية ماحدث في السجن . انا لم اكن في السجن وهذا يساعدني في اضفاء المزيد من الحيوية على التفاصيل . اغفر لي ياعزيزي شارلوت ولكنك وُصمت ، أرجو المعذرة على ضحكي لانني ادرك جيداً مقدار الظلم الواقع عليك ، ولكنك وُصمت بوصفك رجلًا كذاباً .

ضحك ضحكة مدوية سعيدة كما لو توقع أن يشاركه محدثه احساسه بالجانب الفكاهي للاحداث واضاف :

ـ عليك أن تختفي عن الانظار حالاً ياشارلوت . لقد اصبحت الانسة غاضبة عليك جدا ولكنني اقنعتها أن تعطيك ثلاثمائة فرنك عن أجرك . انك مدين لي بستمائة فرنك ياعزيزي .

ومد يده اليسرى متردداً . فسأله شارلوت وهو لا يزال يحافظ على مسافة بينه وبين كاروس :

ـ وهل ستسمح لك بالبقاء ؟

ـ ليس لديها خيار آخر ياعزيزي . انها لم تسمع بالمرسوم السابع عشر وأظن انك ايضاً لم تسمع به.من المؤكد أنتم لا تقرأون الجرائد هنا ، فقد صدر مرسوم يقضي بعدم شرعية أي انتقال للاموال تم خلال فترة الاحتلال الالماني اذا قرر أحد الطرفين أن ينقض الاتفاق . هل تعني حقاً أنك لم تفكر في ذلك قط ؟ على أية حال أنا نفسي لم افكر فيه إلا هذا الصباح .

حدق شارلوت الى وجهه بفزع . كانت هيئة الممثل تبدو كأنها تحولت مؤقتاً من خنزير بدين الى مثل أعلى دنيوي متغطرس يقف هناك مستنداً بازدراء الى محور الكرة الأرضية يعرض عليه مملكة الأرض متمثلة بمزرعة مساحتها ست فدانات وبيت . كان يمكن له ان يستعيد كل شيء أو ستعاد اليه باعجوبة الثلاثمائة فرنك التي كان يمتلكها . لقد حفل ذلك اليوم بالظواهر فوق الطبيعية منذ بداية الصباح.كانت ثمة عجوز تحتضر وقد اطبق الظرف الفوق طبيعي

وعندما جاء الرب كان العدو حاضراً على الدوام . كان ظل الرب والدليل المر على وجوده . دوت مرة اخرى ضحكة الممثل السخيفة ولكن شارلوت سمع بدلا منها ضحكة جميلة تدعوه بصوت رفاقي ومبتهج الى الدخول الى مملكة الشيطان . قال له كاروس وهو يقهقه متلذذا :

ـ أراهنك على ان شافيل فكر في هذا عندما وقع صك التنازل ، ياله

من إبليس مخادع . اليوم هو التاسع عشر . أراهن على انه لن يتأخر كثيرا في المجيء بعد صدور المرسوم .

لم يكن لكلمات الممثل التافهة نفسها أي تأثير في ذهن شارلوت ولكنه سمع خلف تلك الكلمات الشيطان وهو يقول له : «حسنا فعلت ياشارلوت» . وشعر بالسعادة تغمره ، فقد كان هذا بيته وهو مالكه . قال لكاروس :

ـ وما الفائدة من استمرارك بتمثيل دور شاڤيل ياكاروس ، فكما قلت سيظهر شاڤيل الحقيقي قريباً ليعود الى بيته .

أجاب كاروس :

ـ تعجبني ايها الرجل العجوز ، انك تذكرني بالعجوز الطيب پيدو . دعني اخبرك ، اذا ضغطتُ على زناد هذا الشيء فلن تكون بحاجة الى بضعة الاف من الفرنكات .

احس بان الحشيش حشيشه ونظر اليه بحنان. ينبغي ان يقصه قبل حلول الشتاء ، وفي العام المقبل سينظم كل شيء في الحديقة. كانت آثار الاقدام الممتدة على الطريق والمتجهة نحو النهر واضحة . وكان في وسعه تمييز اثار حذائه الصغير من اثار حذاء القس المطاطي العريض . لقد سار الرب في هذا الطريق ودخل البيت فبدا العالم المرئي كأنه قد شفي فجأة وأُضَبّ ثم استعاد هيئته مرة اخرى . كان يرى كاروس البدين الظافر بوضوح وكان يعلم جيدا ماذا يجب أن يفعله . المرسوم المؤرخ في السابع عشر ، حتى الهبة التي جاءته من الشيطان كانت في الحقيقة هبة من الله ، فلم يكن في وسع الشيطان أن يهب شيئا دون أن يهب الله في الوقت نفسه

الفرصة العظيمة لرفض تلك الهبة . مرة اخرى سأل كاروس :
ـ ولكن ما الفائدة ياكاروس ؟
فأجابه كاروس :
ـ لماذا ؟ إن توفير ملجأ لانسان مثلي حتى ليلة واحدة يعد مكسباً . سيستعيد الناس عقولهم عن قريب وسيتولى الامور أرجحهم عقلاً ولابد اذن من الاختفاءحتى ذلك الوقت .
ولكنه لم يستطع اخفاء تباهيه وأضاف :
ـ ولكن هذا ليس كل شيء ياصديقي . تصور الانتصار الذي سأحققه لو تزوجتها قبل أن يعود شافيل . استطيع أن افعل ذلك ، فانا كاروس ، أليس كذلك ؟ تعرفني جيداً عندما مثلت دور ريجارد الثالث . «هل يمكن لرجل ان يسعى الى كسب ودامرأة وهي على هذا المزاج ؟» والجواب هو نعم ، نعم فعلاً ، نعم ياشارلوت .
من الضروي جدا أن يعرف الانسان عدوه معرفة جيدة ، فسأله شارلوت مرة ثالثة :
ـ لماذا وما الفائدة ؟
ـ انا بحاجة الى المال ياعزيزي ولن يستطيع شافيل رفض مشاركتي . سيكون ذلك تصرفا مقيتاً منه خصوصاً بعد ان خدع اخاها وحرمه الحياة .
ـ وهل تظن انني لن أتدخل ؟ لقد قلت أنت نفسك البارحة إنني أحب الفتاة .
فأجاب كاروس وكأنه يحاول الاستخفاف بالاعتراض الذي أبداه شارلوت :

ـ أوه تحبها ! انك ياعزيزي لاتحبها بما يكفي لكي تجازف من أجلها . لقد تجاوزنا أنا وأنت المرحلة التي يحب فيها الانسان حبيبته مثل هذا الحب . وعلى أية حال لو عاد شاڤيل فانك لن تربح شيئاً ، ولكن اذا ربحت أنا فانت تعرف أنني كريم .

كان كريماً حقاً وكان كرمه جزءاً لايتجزأ من فظاظته وقلة تهذيبه ، فاضاف قائلاً :

ـ ولكن ، على أية حال ، ما الذي استطيع ان افعله من أجلك . لقد قلت لها بنفسك إنني انا شاڤيل .

ـ ولكن هل نسيت انني أعرف من أنت حقاً ، كاروس المتعاون مع العدو والقاتل .

تحركت يدكاروس اليمنى في جيبه واقترب إصبعه من قفل الامان وقال :

ـ اذن انت تعتقد أنني خطر الى هذا الحد ؟

فأجابه شارلوت وهو يراقب يد كاروس :

ـ نعم وهناك نقطة اخرى ، أنا اعرف أين شاڤيل .

ـ أين هو ؟

ـ انه قريب من هنا . هناك شيء آخر ، انظر عبر الحقول ، هل ترى الكنيسة هناك ؟

ـ أراها فعلاً .

ـ والى اليمين من الكنيسة هل ترى ذلك التل المنقسم الى عدة حقول ؟

ـ نعم .

ـ هناك رجل يشتغل في المزرعة الواقعة في الزاوية العليا اليمنىٰ من التل

ـ وماذا بشأنه ؟

ـ لا يمكنك أن تميزه من هذه المسافة ولكنني اعرفه ، انه فلاح يدعىٰ روش وهو قائد قوات المقاومة في سان جان .

ـ طيب ، ثم ماذا ؟

ـ افترض انني سأذهب اليه فوراً واخبره بأن كاروس موجود في البيت الكبير ، ليس كاروس المتعاون مع العدو حسب ، انما ايضاً كاروس القاتل الذي قتل شخصاً يدعىٰ توبار .

ظن لحظة ان كاروس كان يوشك ان يطلق النار عليه ، انه بلاشك تصرف طائش ويائس في مكان مكشوف كهذا ، إذ سيدوي صوت اطلاق الرصاص في الوادي . ولكن بدلاً من ذلك ابتسم كاروس وقال :

ـ ياصديقي يبدو اننا مرتبطان بعرىٰ لا تنفصم .

وقال له شارلوت بحذر وكأنه يخاطب كلباً مربوطاً :

ـ اذن لا اعتراض لديك لو عدت معك الىٰ البيت .

ـ ولكن قد تعترض السيدة .

ـ ولكني واثق بأن السيدة ستأخذ بنصيحتك .

أخرج كاروس يده اليمنىٰ من جيبه فجأة وبحركة مرحة ربت مرتين ظهر شارلوت وقال له :

ـ أحسنت ، أحسنت ، لقد أخطأت . سنعمل معاً . أنا معجب بك رجلاً . بقليل من المهارة نستطيع أن نستغل الفتاة وأن نتمتع بها

وبأموالها معاً .

وضع كاروس ذراعه في ذراع شارلوت ودعاه بحرارة لدخول البيت . نظر شارلوت خلفه ورأىٰ قامة روش الصغيرة من بعيد وتذكر الفترة التي لم يكونا فيها اعداء ، وذلك قبل ان يحول المرض لسان روش الىٰ لسان مسموم .

استطاع أن يرىٰ روش وهو يستدير خلف محراثه صاعداً التل .

ضغط كاروس علىٰ ذراع شارلوت اليمنىٰ وقال له :

ـ اذا كان شافيل هذا قادماً الىٰ هنا حقاً فسنقف في وجهه معاً ، أنا وأنت ، واذا حدث ما لم يكن في الحسبان فانت تعرف أنني أحمل مسدساً .

ضغط علىٰ ذراعه مرة اخرىٰ واضاف :

ـ لن تنسىٰ ، أليس كذلك ؟

ـ كلا .

ـ عليك أن تعتذر لها عن الاكاذيب التي اخبرتها بها . انها متألمة جداً من ذلك .

ـ أية أكاذيب ؟

ـ عندما قلت لها إن أخاها أعدم صباحاً .

بهر ضوء الشمس المنعكس من نافذة البيت عينيه فنظر الىٰ الاسفل وهو يفكر : ما الذي يجب أن افعله ؟ ما الذي أحاول أن أفعله ؟

(١٧)

ماتت مدام مانجو في تلك الليلة واستدعي القس مرة اخرىٰ . كان شارلوت يستمع من غرفته في الطابق الاعلىٰ الىٰ جلبة الموت : خطوات تروح وتجـيء ، صلصلة الزجاج ، ماء جار من صنبور مفتوح ، صوت شخصين يتكلمان بهمس . فتح كاروس الباب ودخل . عندما جاء شارلوت الىٰ البيت اول مرة سمح له بالمبيت في تلك الغرفة التي عدها غرفته الخاصة ولكنه الآن مضطر الىٰ افساح المجال للغرباء .

همس قائلاً :

ـ شكراً لله ، يبدو ان المراسيم توشك أن تنتهي . انها تبعث الرعشة في عروقي .

ليس الموت حادثاً خصوصياً ، فالامر لا ينتهي بمجرد توقف عملية التنفس في الجسد ، بل هناك همسات وصلصلة الزجاج وصرير الواح التابوت الخشبية وجريان الماء . الموت إذن أشبه بعملية جراحية طارئة تجري في غياب اشخاص مختصين ، او انه اشبه بعملية ولادة إذ يتوقع الانسان في كل لحظة ان يسمع صراخ الجنين الذي سيطل علىٰ الدنيا ولكن الذي يتناهىٰ الىٰ السمع في النهاية مع الموت هو الصمت . إنقطع صوت جريان الماء من الصنبور وهدأ الزجاج وتوقفت الواح التابوت الخشبية عن الصرير .

تنهد كاروس بارتياح وقال :

ـ انتهت المراسيم .

كانا ينصتان معاً وكأنهما متآمران . همس كاروس قائلاً :

ـ وصلنا الآن الى مرحلة حاسمة . ستبدأ الفتاة بالتساؤل عما ستفعله . ليس في وسعها أن تبقى هنا وحدها .

وقال شارلوت :

ـ يجب أن اذهب لأصحب القس الى بيته .

وفي اثناء سيرهما بين الحقول في الطريق الى الكنيسة سأل القس شارلوت بلهجة جافة :

ـ هل تغادر البيت ؟

ـ ربما .

ـ إما ان تذهب أنت أو يتعين على الآنسة مانجو أن تجد من يرافقها من اهل القرية .

إنزعج شارلوت من افتراض القس ان تصرفات الانسان تحكمها الاخلاق ، بل الاحرى ليست الاخلاق هي التي تقرر مايفعله الانسان وانما رغبته في تجنب الفضائح . قال القس :

ـ الامر يعود اليها لتختار ما تراه مناسباً .

توقفا على مشارف القرية فقال القس :

ـ الآنسة مانجو صغيرة السن ومن السهل تضليلها ، إنها تجهل حقائق الحياة وساذجة جداً .

وقف القس مثل علامة استفهام سوداء ومن خلفه الغيوم الصباحية الرمادية اللون في السماء . كان منظره ينم عن قدر هائل من العجرفة والثقة بالنفس : فقال له شارلوت بخبث :

ـ لا أوافقك . لقد خبرت الحياة واستمتعت بأوقاتها في پاريس وهي

ليست فتاة ريفية .

فأجاب القس :

ـ ليس هناك اختلاف كبير بين العيش هنا أو هناك ، والحياة هي نفسها في كل مكان . يمكن أن نتعلم الكثير من أمور الحياة من وجود انسان واحد فقط في الصحراء اذا كنا متمرسين بالملاحظة او اذا كانت لدينا نزعة الى الملاحظة . أما هي فليس لديها أي ميل الى الملاحظة .

ـ ولكنها بدت لي كأنها تملك الكثير من الحكمة .

فأجاب القس :

ـ يخيل إليّ انك لم تبال كثيرا لترى اذا كان ذلك يمت بصلة الى الحكمة .

ـ كلا .

ـ غالباً ما يبدو الذكاء حكمة مثلما يبدو الجهل في الغالب دهاء .

ـ ما الذي تريد قوله ـ أو فعله ؟

ـ سيدي انك رجل مثقف ولا اظنك سترد عليّ أن هذا ليس من شأني . تعرف جيداً أنه يهمني جداً . ولكنك تعتقد انني أغالي في الاحتشام لانني قلت لك إما ان تذهب أنت أو ان تجد الآنسة مانجو مرافقاً . ليس هذا مغالاة في الاحتشام ياسيدي بل هو من قبيل المعرفة بالطبيعة البشرية وهو أمر يصعب إجتنابه وبخاصة اذا كنت تجلس يوماً بعد يوم ، كما نفعل نحن ، لتستمع الى الرجال والنساء وهم يقولون لك ماذا فعلوا ولماذا فعلوه . تمر الآنسة مانجو في الوقت الحاضر بمرحلة من شأنها أن تجعل أية إمرأة ترتكب حماقة . هناك

عامل مشترك بين مشاعرنا المختلفة ، يعي الناس جيداً أن الشهوة تنطوي علىٰ قدر من الحزن ولكنهم ليسوا علىٰ الدرجة نفسها من الوعي أن الحزن ايضاً يمكن أن ينطوي علىٰ الشهوة ، لا أظنك ستستغل الظروف ياسيدي .

دقت الساعة في مبنىٰ الكنيسة القبيح معلنة السادسة والنصف . كانت الساعة السادسة والنصف أيضاً يوم كان في السجن وبذل محاولته الوحيدة للتراجع عن الصفقة التي عقدها مع جانقيبه وكانت الساعة السادسة والنصف أيضاً عندما أتيح له اول مرة أن يقرأ ما في عيني جانقيبه الساهرتين . رد علىٰ القس قائلاً :

ـ ثق بي أبتي ، فأنا لا اريد للآنسة مانجو سوىٰ الخير .

ثم استدار وحث خطاه عائداً باتجاه البيت . كانت ساعة يستطيع المرء أن يرىٰ فيها بوضوح ..

الغرف في الطابق الاسفل غارقة في الظلام ، ولكن ثمة مصباحاً مضاء في صحن السلم . دخل الصالة بهدوء كبير ولم يسمعه أي من الشخصين الموجودين فيها . كان الممثل والآنسة مانجو كأنهما ممثلان ينتظران امام آلة التصوير اشارة المخرج حتىٰ يشرعا في التمثيل ، مثلما قال القس هناك الكثير من الحزن في الشهوة والكثير من الشهوة في الحزن . كانا يبدوان كأنهما يريدان كشف نصف الحقيقة فقط . تساءل ماذا كان المقطع الذي انتهىٰ تقديمه تواً بحيث زال بعض خط السخط من وجه الرجل بينما جعل الفتاة تميد الىٰ الامام تحت تأثير الجوع والدموع . تضرعت اليه :

ـ لماذا لا تتركني وشأني ؟

فأجابها متوسلاً :

ـ آنستي انك وحيدة الآن ، وحيدة تماماً . ولكنك غير مضطرة الىٰ أن تكوني وحيدة بعد الآن . كنت تكرهينني ولكن ذلك انتهىٰ الىٰ غير رجعة لاتهتمي بعد اليوم بهذا او ذاك .

أدرك شارلوت وهو يستمع الىٰ كاروس أن الممثل قد حفظ دوره جيداً . كان المراهق الأبدي يعرف جيداً كيف يعرض علىٰ الفتاة الطمأنينة وهي ما يبغيه معظم الناس اكثر من الحب نفسه .

كانت الكلمات تتدفق كما يتدفق نهر النسيان .

ـ أنا مرهقة .

فأجابها :

ـ تيريز ، يمكنك أن تستريحي بعد الآن .

مد يده فوق الدرابزين ووضعها علىٰ يد الفتاة . لم تعترض ، وقالت :

ـ أتمنىٰ لو أجد من أثق به ، كنت أظن ان في وسعي ان اثق بشارلوت ولكنه كذب عليّ بشأن أخي ميشيل .

فقال لها كاروس :

ـ تستطيعين أن تثقي بي لأنني اخبرتك بما هو أسوأ فقد قلت صراحة من أنا .

فقالت :

ـ نعم ، أظن ذلك .

إقترب منها خطوة اخرىٰ . كان شارلوت مندهشاً كيف لم تكتشف حقيقته فقد كانت رائحة الزيف تفوح منه كما تفوح رائحة

الكبريت في الجو .

لم تفعل شيئاً لتتجنبه وعندما طوقها بذراعيه تركت نفسها تنجرف بعينين مغمضتين كأنها تقدم على الانتحار . فجأة ومن فوق كتفيها رأىٰ كاروس شارلوت واقفاً في الاسفل ، ابتسم ابتسامة منتصرة وغمز له وكأنه يوجه رسالة سرّية اليه ، نادىٰ عليها شارلوت :

ـ آنسة مانجو .

ابتعدت الفتاة عن حضن كاروس ونظرت الىٰ الاسفل خجلة حائرة، عند ذاك فقط أدرك شارلوت كم كانت صغيرة في السن وكم كان هو وكاروس متقدمين في العمر . لم يعد يشعر بأي ميل تجاهها بل تحولت رغبته الىٰ رقة متناهية لا يمكن قياسها . كان ضوء المصباح يتلاشىٰ شيئاً فشيئاً مع ارتفاع الشمس وانتشار ضيائها .

كانت تنظر الىٰ الافق كأنها طفل بريء تأخر عن نومه بسبب حفلة ساهرة استمرت حتىٰ ساعة متأخرة من الليل . قالت له :

ـ لم اكن اعرف انك هنا ، منذ متىٰ ..

كان كاروس يراقبه بحذر . رفع يده اليمنىٰ عن ذراع الفتاة ووضعها في جيبه حيث المسدس وخاطب شارلوت جذلاً :

ـ حسناً ياصديقي العزيز شارلوت ، هل أوصلت القس الىٰ بيته ؟

فأجاب شارلوت وهو يقف في الصالة موجهاً كلامه الىٰ تيريز مانجو :

ـ إسمي ليس شارلوت . أنا جان لوي شاڤيل .

(١٨)

صاح كاروس بحدة :

ـ انك مجنون .

ولكن استمر شافيل يتحدث الى الفتاة بهدوء وقال :

ـ ان الرجل الواقف أمامك ممثل يدعى كاروس ، ربما سمعت به انه مطلوب للعدالة لانه كان متعاوناً مع العدو ولانه قتل رجلاً يدعى توبار .

ـ انك مجنون .

فقالت الفتاة :

ـ لا أفهم شيئاً .

ثم مسحت خصلة مبللة من شعرها وأبعدتها عن جبينها وأضافت :

ـ لقد انتشرت الاكاذيب ، لم اعد اعرف من يكذب ومن يقول الصدق . لماذا قلت اذن انك تعرفت اليه عندما جاء وادعى أنه شافيل .

وقال كاروس بلهجة المنتصر :

ـ نعم أخبرنا لماذا .

ـ كنت أخشى ان اقول لكِ من انا لأنني كنت اعرف كم تكرهينني . عندما جاء الى هنا ظننت انها فرصتي حتى أتخلص من شخصيتي الحقيقية الى الابد ، وحتى يكون هو هدف كرهك .

فقال له كاروس مستهزئاً من فوق الدرابزين :

ـ يالك من كاذب .

كان كاروس والفتاة واقفين جنباً الىٰ جنب في أعلىٰ السلم . نظر اليهما شاڤيل وشعر بفزع ، فقد يكون تأخر كثيراً في كشف الحقيقة وضاعت عليه الفرصة . قد لا يكون دافع الفتاة للتصرف بهذا الشكل مجرد لذة سببها الحزن مثلما كان القس يتحدث بل ربما كان حباً حقيقياً جعلها مستعدة لتقبل كاروس الماكر كما تقبلت من قبل شاڤيل الجبان . لم يعد يهتم بأي شيء في الدنيا سوىٰ إقامة حاجز لاينهار بينهما وبأي ثمن كان ، بأي ثمن على الاطلاق .

قال له كاروس :

ـ خير لك أن تأخذ فراشك وترحل ، لم تعد مرغوباً هنا بعد الآن .

ـ البيت يعود للآنسة مانجو . دعها تتكلم هي .

أجابه كاروس :

ـ يالك من مخادع ماكر .

ووضع يده علىٰ ذراع الفتاة واضاف :

ـ لقد جاءني يوم أمس واخبرني بأن البيت لا يزال ملكي ، وقال انه صدر مرسوم أو ما شابه ذلك ينص علىٰ الغاء المعاملات كافة التي تمت إبان فترة الاحتلال وعدها غير قانونية ، كان يظن أنني سأستغل هذه النقطة لمصلحتي .

فقال شارلوت :

ـ عندما كنت صبياً في هذا البيت كنت ألعب لعبة معينة مع صديقي الساكن في الجانب الآخر من الوادي .

ـ عم تتكلم هذه المرة بحق السماء ؟

ـ أصبر قليلاً ، ستجدها قصة ممتعة . كنت أمسك بمصباح يدوي أو بشمعة واذا كان اليوم مشمساً كنت أمسك بمرآة وارسل رسائل كهذه بالاشارات عبر هذا الباب . احياناً لم تكن الرسالة تزيد عن عبارة «انا لا اعمل شيئاً» .

قال كاروس وقد ظهرت عليه علامات القلق :

ـ وماذا تفعل الآن ؟

ـ هذه الرسالة كانت تعني : «النجدة ! الهنود الحمر هنا» .

فقالت الفتاة :

ـ اوه ، لا افهم شيئا من هذا الكلام .

ـ لا يزال ذلك الصديق ساكناً هناك علىٰ الرغم من انه لم يعد صديقي الآن . كان يخرج للعناية بابقاره في مثل هذا الوقت . سيرىٰ الاشارات تشتعل وتنطفيء وسيعلم ان شافيل قد عاد . سيقرأ الرسالة التي تقول : «الهنود الحمر هنا» . ليس هناك شخص آخر يستطيع قراءة هذه الرسالة .

رأى يد كاروس وهي تتوتر في جيبه . لم يكن هذا كافياً لكي يثبت أن الرجل كان كاذباً فقد كان قادراً علىٰ استغلال أية كذبة وتحويلها الىٰ أغراض رومانسية . يجب أن يكون هناك حاجز لا يتحطم .

قالت تيريز :

ـ تقصد انه اذا جاء الرجل فذلك يثبت انك شافيل حقاً .

ـ نعم .

فقال كاروس منزعجاً :

ـ لن يأتي .

ـ وحتىٰ اذا لم يأت فهناك طرق اخرىٰ لاثبات ادعائي .
سألته تيريز :
ـ ومن هو صديقك ؟
لاحظ انها قالت «صديقك» كأنها اصبحت شبه مقتنعة فأجابها :
ـ الفلاح روش ، مسؤول المقاومة هنا .
وقالت الفتاة :
ـ ولكنه سبق أن رآك في الطريق الىٰ بريناك .
ـ لم ينظر ملياً في وجهي . لقد تغيرت كثيراً يا آنستي .
أخذ المصباح اليدوي مرة اخرىٰ ووقف عند عتبة الباب وقال :
ـ سيرىٰ هذه الرسالة حتماً ، فهو الآن إما في الزريبة أو في الحقل .
صرخ كاروس في وجهه قائلاً :
ـ ضع ذلك المصباح جانباً .
لقد كانت تلك لحظة انتصاره . فقد انتهىٰ التمثيل واصبح الممثل انساناً دون الدرجة الثالثة . وعلىٰ الرغم من النسمات الصباحية الباردة ، إلا أن حبات العرق ظهرت علىٰ جبينه . هز شاقيل رأسه وهو يراقب كاروس وانتصبت قامته تحسباً للألم القادم .
ـ ضعه جانباً .
ـ لماذا ؟
وأخذ كاروس يتوسل الىٰ الفتاة :
ـ آنستي من حق الرجل أن يقاتل من أجل حياته . قولي له ان يضع المصباح جانباً والا سأطلق عليه النار .
ـ إذن انت قاتل حقاً ؟

فأجابها باخلاص غريب :

ـ أنستي ، ما تزال الحرب قائمة .

وأسند ظهره الى الدرابزين بعيداً عنها واخرج المسدس من جيبه وأخذ يلوح به في وجه شاڤيل والفتاة . وكانت فوهة المسدس الاشارة التي ربطتهما .

ـ ضع المصباح جانباً .

دقت إحدىٰ ساعات القرية معلنة السابعة صباحاً ، كان شاڤيل يعد عدد الدقات ويده ضاغطة علىٰ زر المصباح . كانت ساعة درب النفايات والحائط الاجرد وساعة اعدام الرجل الآخر . بدا له انه تحمّل الكثير من المشاق من أجل تأخير مشهد متكرر . فسّر كاروس تردده تفسيراً خاطئاً وأصبح يتكلم كأنه اصبح سيد الموقف وقال :

ـ والآن ارم مصباحك وابتعد عن الباب .

ولكن شاڤيل رفع المصباح مرة اخرىٰ واخذ يرسل رسالته بالاشارات من خلال اشعال المصباح واطفائه .

أطلق كاروس عدة عيارات متعاقبة . ذهبت الرصاصة الاولىٰ طائشة بسبب انفعاله الشديد فأصابت زجاجة احدىٰ الصور ، أما الرصاصة الثانية فقد أصابت المصباح اليدوي فوقع علىٰ الارض وأحدث عموداً ضوئياً علىٰ الارض امتد حتىٰ الباب . تقلصت عضلات وجه شاڤيل جراء الألم . خطا بضع خطوات الىٰ الوراء كما لو ان امامه طاولة كبيرة موضوعة قرب الحائط . ثم زالت حدة الألم . لقد كان ألمه أشد من هذا عندما إلتهبت زائدته الدودية . وعندما رفع رأسه كان كاروس قد ابتعد ورأى الفتاة واقفة امامه .

فسألته :

ـ هل أصبت ؟

فأجابها :

ـ كلا . انظري الى الصورة . لقد اخطأني .

كانت الفترة بين اطلاق الرصاصتين قليلة بحيث لم يكن في وسعها أن تميز ان كانت رصاصة واحدة او رصاصتين . كان يريد ابعادها عن المعمعة قبل ان يحدث لها مكروه . مشىٰ بضع خطوات بحذر شديد وهو يجر قدميه وجلس على احد الكراسي . بعد لحظات ستظهر آثار الدم . قال لها :

ـ لقد انتهى كل شيء . لن يجرؤ على العودة الى هنا ابداً .

وسألته :

ـ وهل أنت حقاً شافيل :

ـ نعم .

ـ ولكن ماقلته عن الرسالة بالاشارة كانت كذبة اخرى ، أليس كذلك ؟ ففي كل مرة كانت إشارتك مختلفة عن سابقتها .

فأجابها :

ـ نعم إنها كذبة اخرى . تعمدت أن اجعله يطلق النار . لن يعود الى هنا مرة اخرى . يعتقد انه قتلني مثل ... مثل ...

لم يستطع تذكر اسم الرجل الاخر ، بدت له حرارة الغرفة في ذلك الوقت المبكر امراً غير اعتيادي . كان العرق يجري فوق جبينه مثل حبات الزئبق .

قال لها :

ـ لم يذهب الى سان جان بل سار في الاتجاه المعاكس . إذهبي أنت هناك وأطلبي من القس أن يساعدك ، يستطيع روش ايضاً أن يقدم خدمة لك . تذكري انه الممثل كاروس .

فقالت له :

ـ يبدو انك مصاب .

ـ آه ، كلا . لقد أصابتني شظية مرتدة من الحائط ، هذا كل ما في الامر لقد افزعتني قليلاً . احضري لي ورقة وقلماً . سأكتب تقريراً عما حدث بينما تذهبين أنتِ لاحضار الشرطة .

جلبت له ما اراد ووقفت حائرة ومضطربة أمامه . كان يخشىٰ أن تخور قواه قبل أن تذهب وأن ينهار أمامها . فقال لها برقة :

ـ لا خوف عليك الآن ، انك بخير أليس كذلك . هل تلاشىٰ الحقد الذي كنت تكنينه ؟

ـ نعم .

ـ حسناً ، حسناً .

لم يبق هناك شيء من حبه ، اما الرغبة فلم تكن مهمة . كان يشعر بالعطف والرقة والشفقة التي يشعر بها الانسان عندما يرى غريباً حدث له سوء . فقال لها مرة اخرى وقد نفد صبره وكأنه يخاطب طفلاً :

ـ ستكونين على مايرام منذ الآن ، عليك أن تسرعي .

فسألت باهتمام كبير :

ـ هل أنت بخير ؟

ـ نعم ، نعم .

بدأ بالكتابة حالماً ابتعدت . كان يريد ترتيب كل الامور ، وبحكم غريزته كمحام يريد التوصل الى نهاية نظيفة . تمنىٰ لوكان يعرف النص الصحيح للمرسوم ولكن تذكر انه من غير المحتمل أن تتأثر عملية نقل الملكية بمضمون المرسوم ما لم ينقض احد الطرفين الاتفاق المعقود ، وبدأ يكتب : «انا اترك كل شيء املكه قبل وفاتي» وكان يريد من ذلك أن يؤكد عدم وجود أية نية لديةً لنقض الاتفاق ، ولو ان ماكان يكتبه لم تكن له أية قيمة قانونية فعلية اذ لم يكن لديه أي شهود . بدأ الدم الخارج من بطنه يسيل فوق ساقه ، شكر الله على ان الفتاة لم تكن هناك. أدىٰ الدم الجاري فوق جسمه الى خفض درجة حرارته كما يفعل الماء-نظر حوله نظرة سريعة وكان الضوء ينتشر عبر الحقول من بين فتحة الباب-كان يشعر برضا غريب لانه يموت في بيته . في ساعة الموت لايملك الانسان سوىٰ ما يستطيع رؤيته . كان يفكر . مسكين جانفييه ، درب النفايات . بدأ يوقع اسمه ولكنه قبل أن يتم التوقيع شعر بأن السائل الخارج من جرحه أخذ يجري دون قياس كأنه نهر أو سيل او طوفان السلام و الطمأنينة .

هدأت الورقة على الأرض بجانبه . كان قد خط فوقها عبارات غير مفهومة . لم يعرف ابداً ان توقيعه بقي ناقصاً . فلم يستطع كتابة سوىٰ جان لوي شا .... ومن المؤكد أن هذا يمكن ان يكون شارلوت أو شافيل . لقد قضت العدالة أن يترك بسلام.نعم ، فقد سمح حتى لضمير موسوس وشديد التمحيص كضمير محام بأن يرقد بسلام .

عن الرواية

تحكي رواية «الرجل العاشر» قصة رجل ثري ولكنه جبان يواجه الموت في احد معسكرات الاعتقال الالمانية في فرنسا إبان الحرب العالمية الثانية . يعرض غرَيَم غرين باسلوبه الشيق رد فعل هذا الرجل إزاء موقف حاسم كهذا والنتائج التي سيتمخض عنها تخاذله . وعلى الضد من هذا يقدم نماذج من اناس بسطاء يواجهون الموقف نفسه بشجاعة ورباطة جاش .

كتب غرَيَم غرين رواية «الرجل العاشر» عام ١٩٤٤ استناداً الى عقد بينه وبين شركة (مترو غولدوين ماير) الا ان مخطوطة الرواية بقيت منسية في ادراج ارشيف الشركة حتى عام ١٩٨٣ . نشرت الرواية اول مرة عام ١٩٨٥ بعد اكتشافها مجدداً واثارت اهتماماً واسعاً في الاوساط الأدبية العالمية . وقد اضاف اليها غرَيَم غرين مقدمة وافية شرح فيها الظروف والملابسات التي رافقت اختفاءها طوال هذه الفترة وعدّها افضل من روايته الاخرى الموسومة بـ «الرجل العاشر» .

«الرجل العاشر» رواية ممتعة تشد القارىء منذ البداية حتى النهاية شانها في ذلك شان روايات غرَيَم غرين الاخرى .

دار المأمون للترجمة والنشر

السعر : ٩٠٠ فلس